المانترا

المانتر

ما بعد رحيل سمية

رواية

معتز هاني

تصميم الغلاف: محمد علي

رقم الإيداع: 2019/17713

I.S.B.N:978- 977-6640-65-8

الطبعة الأولى 2019م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطربة، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر: د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

معتز هاني

المانترا

"ما بعد رحيل سمية"

رواية

إهداء

إلى الوحدة التي علمتني كل شيء، والقلم الذي صنعت به لنفسي عالما سحريا أعيش فيه.

وإلى الحقيقة التي لم أجدها في قلوب الأولياء ولا انهزام العشاق ولا في انسدال ضفائرها بعد أن رحلت.

إليهم جميعا، شكرا على رحلتكم معي في الحياة.

"المرأة كحصان طروادة..

تدخل القلب بابتسامة..

تنشر قوتها ببرءتها..

تحتل مملكتنا بأنوثتها..

وتنشر شذاها في عروقنا..

وهنا تأتي هزيمتنا الأولى.. ونصرنا الأول"

"العشاء الأخير قبل الغرام"

في هذا اليوم تحديدا من عام 2019 تذكرت صديقي "الغرام".. وما أعجب أن يكون الإنسان صديقا للغرام نفسه.

صديقي وحيد الذي لم أنسه يوما ولم أنس قصته ولا الأيام والذكريات المقترنة به في حياتي، كل شيء مازال مغلفا برائحة وحيد.

كان العشاء العائلي الشهي معدا ورائحته تدخل أنفي بلا استئذان.. في كل عام كانت العائلة تجتمع لمناقشة قضاياها أو خلافاتها في أحيانا كثيرة.

فيلا أخي محمود في مدينة نصر كانت مركز الاجتماعات لأفراد الأسرة لحل خلاف أو مناقشة قضية مهمة تمس الأسرة.. كانت مساحتها كبيرة ومليئة بمختلف أنواع الأزهار وألوانها المنظمة بعناية كأنها في فريق موسيقي تحت قيادة موسيقار.. ورغم رحابة المكان إلا أن ضيق صدر البشر في خلافاتهم أحيانا يجعل الأماكن كأنها قبور ضيقة. فالغضب والتعصب يحول الجنة إلى جحيم.

وكان الاجتماع هذا العام لمناقشة موضوع ابن أخي "سعيد" الذي وقع في عشق زميلته في الدراسة ولكن صيحات الاعتراض والاستهجان سرعان ما خرجت كالطوفان من صدور العائلة التي ترى الفتاة من عائلة غير ميسورة الحال.

هكذا يتحكم المال في العلاقات.. هكذا أصبحت الزيجات في زمننا هذا حبيسة أدراج النقود إن شاء أفرج عنها وإن شاء كُتب عليها "مغلق للأبد".

كان سعيد يعرف مدى اعتراض العائلة ولكنه ما زال يتعلق بآخر قشة في ثوب الأمل وهي "أنا".. كان يعرف بأفكاري ومعتقداتي في هذا الموضوع تحديدا وأني لا أعرف غير الحب سبيلا ودليلا وسراجا للحياة.

ربما تعلمت كل هذا من وحيد وزاد اعتناقي بمذهب الحب بعد أن عرفت وعشقت لبنى حتى أصبحت زوجتي، رحم الله روحك يا لبنى.

كانت الموضوعات التي تناقشها العائلة على المنضدة دائما خاصة بالمال أو المشاريع ولكن لأن الموضوع خاص بالحب والمشاعر فأظنه سينتهي بسرعة وستكون النتيجة محسومة، لن يقبلوا سوى من في وضعهم المادي، من يأتيه المال فجأة بعد حرمان طويل يظن أنه السند الوحيد والملجأ الوحيد وأن كل من حوله يطمعون به، وأن كل مقاييس الاختيار تتعلق بالمال، وأنا رافض لهذا المبدأ تماما ولهذا كان يحتاج سعيد أن أقف في صفه من أجل أن يصل لأبعد نقطة في قلبه إلى حب حياته.

بدأت المشويات في رحلتها على المنضدة وبدأ الجميع في الاستعداد لتلك الوجبة ثم الاستعداد لوجبة الاعتراض الدسمة على حب سعيد الأول.

وكأنهم يضعون سكينهم في هذا الطعام ثم يخرجونه ليطعنوا به قلب هذا المسكين بكلمة "لا".

ألف آه يا صديقي لو كنت هنا.. أذكر كلماتك حين قلت لي ذات يوم

"أنت لا ترى العالم فقط من خلال من تحب.. بل تجعل العالم يراك بوضوح من خلال حبك".

أسميتك "الغرام" يا صديقي لأنك لست أقل منه في شيء.. أنت الحب نفسه مجسدا.. أنت جذوته ولوعته وجنونه.. أنت يا صديقي بئر

أمنيات العشاق في هذا الزمن.. إن كان يوجد قلب مثلك في هذا الزمن البغيض.

انتهى الطعام وبدأت جلسة المناقشة العلنية..

بدأت ضحى زوجة أخي في وضع أول خناجرها كالماتادور في قلب الصبي وكأنها لا تتذكر أن أخي نفسه في بداية حياته لم يكن ميسور الحال ولكنها حاربت من أجله والآن كأنها تنسى كل هذا، وقالت للجميع في صلف وعجرفة:

أنتم تعلمون جميعا بحكاية سعيد.. أنه يحب زميلته سلمى ولكن كما قلت لكم جميعا أنها من أسرة متواضعة جدا لدرجة أن والدها يعمل أمينا في إحدى المكتبات ووالدتها ربة منزل ويعيشون في إمبابة في مسكن متواضع للغاية.

قاطعها سعيد صائحا: وما الضرر كونه أمينا لمكتبة.. يا له من فخر أن يعيش بين أحضان الكتب ويعمل ويحصل على المال بعرق جبينه.

سادت حالة من الهرج والمرج بين الحضور حتى قال أخي "محمود" والد سعيد: لا يمكن أبدا أن تتحدث مع والدتك بهذه الطريقة يا سعيد وأمام الجميع.. هل جننت؟

قال في خضوع: عذرا يا أبي ولكن قلبي يريد أن يقول كلمته، أنا لست مثلكم يا أبي أفكر في الحسب والنسب أنا أفكر في السعادة، أفكر فيمن ستخلد داخل قلبي، أفكر في قصة تعيش للأبد لا حياة يقتلها الروتين وتفاصيل المال دون مشاعر.

ثم قال أحد أفراد العائلة وهو يملئ فمه بالطعام ويلبس في يده ساعة تقدر بمائة ألف جنيه: يا سعيد يا بني لا بد أن تتعلم أن الحب ليس كل شيء وأن العقل له دور كبير في...

حتى تدخلت بعد أن فاض بي الكيل في هذه الجلسة المادية الرتيبة وقلت: العقل الذي جعلك تتزوج امرأة أكبر منك بخمسة عشر عاما أليس كذلك يا "أدهم"؟

نسي أدهم أني أعرف قصته جيدا، كان يعمل في إحدى الفنادق في شرم الشيخ وتظاهر بالإعجاب بإحدى السائحات التي تكبره سنا لكي يسافر ويحصل على جنسية دولة أوروبية تكفل له الحياة التي طالما حلم بها، يريد أن يتحدث الآن عن الحب وهو أبعد ما يكون عن الحب ومعناه، لا أعرف كيف جاءته الجرأة حتى لمجرد طرح الفكرة رغم أن قصة زواجه كانت محل سخرية العائلة، زواج بأغراض واضحة وجلية ولا تخفى على أحد.

نظر أدهم في غضب وترك الطعام وقال: وما دخلك أنت يا سليم بقصة زواجي؟

كان يكرهني، يعرف دائما أني النقيض له، أنا أمثل الحب في الجلسة التي أصبحت كجلسة محاكمة لكيوبيد نفسه وهو يمثل عشماوي الحب، يريد أن يحكم على أي قصة حب بالإعدام ويحترم فقط قصص المصلحة والأموال.

قلت له ساخرا وأنا أعرف أنه لا يقرأ: ربما سمعت مقولة جبران حين قال بحكمته "العقل فينا إسفنجة والقلب جدول.. أليس عجيبا أن أكثرنا يؤثر الامتصاص على الانسياب"!!

نظر لوجهي ببلاهة مراهق يتفرس في ملامح ملكة جمال وقال والطعام يسيل على جانب فمه: وما دخل ما قلت بقصتي؟

فمه المليء بالدهون يجسد موقفه من الجلسة، حياة مملة بلا شريك حياة حقيقي فقط مجرد ماكينة لصرف الجنيهات تصرف عليه في كل تفاصيل حياته.

كنت أحاول أن أجعله يفهم أن القلب له الكلمة أيضا، ليس كل شيء في حياتنا موكولا للعقلفقط، المشاعر والعقل لهما سلطان على المغرمين.

ثم قلت في يأس من أن يفهم: لا شيء.. لا شيء.

نظر إلى ابن أخي مستنجدا وهو يعرف أني نصير قضيته الغرامية العالقة في براثن تلك العقول المتحجرة في العائلة.

سيظل الصراع للأبد بين العقل والقلب.. العائلة تفكر بعقلها.. وسعيد يفكر بقلبه ويرى ويسمع بقلبه..

كما قال صديقي لي ذات يوم "الحب هو السيف ذو النصل الحريري.. الذي يقطع ليضم لا ليفرق.. يقطع لكي يبحث كل نصف عن نصفه الآخر".

كم أشتاق إليك يا صديقي اليوم في هذه الجلسة.. لكنت حسمتها من أول جولة بصدق عاطفتك ويقينك بالحب كأنه دين تعتنقه.

بعد انتهاء الجلسة العائلية والانقسام ما بين متردد ورافض، قال لي سعيد في حزن: هل هناك أمل أن أتزوج من أحب ذات يوم يا عمي؟

احتضنته بين ذراعي ونظرت لعينيه في إصرار: لن يهدأ لي بال حتى أراك مع من تحب يا سعيد.. هذه قضيتي من الآن.. لن أنام قبل أن أشيد صرح هواك باسقا للسماء فلا تيأس.. فالحب هو الأمل.

نظر إلي في تعجب وسألني سؤالا كنت أعرف أن وقته سيجيء يوما ما: هل ستتزوج مرة أخرى يا عمي.. هل فكرت في ذلك الأمر؟

ذكرني بزوجتي العزيزة "لبنى" لقد كانت عمري وأكثر.. ولكن المرض اختار أن يضمها لممتلكاته في فترة من أغرب أيام حياتنا.. أيام صديقي "وحيد" الذي أسميته مجازا "الغرام".

مرض السرطان هو من قصف عمري عندما أختار أن يأخذ لبنى من بين ذراعي.. كانت أخر كلماتها: "تزوج من جديد يا سليم.. لا توقف حياتك عند ذكرى".

قلت لها حينها باكيا وهي تنتحب: ذكرى؟؟ أي ذكرى يا لبنى؟؟ أنتِ حاضر دائم ومتجدد.. سلسبيل لا ينتهي مداه في مجرد ذكرى.

دمعت وهي تردد: امسك يداي يا سليم كي تكون آخر شيء تشعره حواسي وأحفظه معي لرحلة جديدة.

أمسكت يديها وأنا أردد بقوة: عمري فداكِ يا لبنى.. لو كنت أستطيع لأعطيت لكِ سنوات من عمري كما فعل "آدم".

قالت: بل أعطيك أنا ما تبقى كي تعيش وتذكرني بقلبك كأطيب ما يكون بين حزن نبضك ورجفة وريدك لأشعر بارتياح هادئ وحزين.

احتضنتها بقوة وهي تفارق الحياة وقبلت عينيها مرددا: اذكريني بين ضلوع الموت الذي اختارك عشيقة يا لبنى.. اعتصريني كزهرة تجلى شذاها وكرقصة صوفية تصل معك لأعلي السماء.

نظر إلي سعيد وأنا أسرح في ذكرى لبنى وأفقت على صوته وهو يقول: عمي.. عمي.. أنت معي؟

ابتسمت في وجهه ابتسامة مشوبة بحزن قائلا: أنا معها يا سعيد.. لقد ذكرتني بها وكنت معها فشكرا لك.. أما عن سؤالك فلا.. لا أستطيع أن أتزوج بعد لبنى.. العمر يا عزيزي غير قابل للترميم فهو إما ملكك وإما فقدته.. وما ذهب لا يعود.

- أريد أن أسألك سؤالا آخر يا عمي وأرجو ألا أزعجك.

- تفضل يا ابن أخي العزيز.

- من هو وحيد؟

صعقني سؤاله ونظرت في عينيه نظرة ضلت طريقها: من أين عرفت هذه القصة؟

- أبي

- وما الذي يعرفه أبوك عن وحيد؟

- قال إنه كان مجنونا.

ضحكت حتى سمع الجميع صوتي ثم همست له: نعم يا صديقي.. وأنا أحد دراويشه.. مولانا الغرام.

- مولانا الغرام؟

- كان اسمه "وحيد" كما عاش حياته.

- وهل عرف الغرام في وحدته؟

- عرفنا الحياة نحن في قصته.

-هل ترويها لي؟

أمسكت بيديه وأشرت بيدي إلى طريق الخروج من فيلا العائلة قائلا: تعال أولا لأريك بقعة قلبي المقدسة ونقطة النور في طريقي.. دعنا نذهب إلى المقابر.

- المقابر يا عمي؟

- تعال معي لترى ما يخبأه الموت عنك وما تريد أن تعرفه عن الحب بين حفرة وصخور وبضع زهور.

"قبر وزهرة وقصة حب"

الموت.. مفتاح الحقائق.. ملف سري للغاية على طاولة السماء.. لا نعرف ما الذي يخفيه عنا ولكن بكل تأكيد نعرف ما يظهره لنا.

كان والت وايتمان يقول "لا شيء أكثر جمالا ممكن أن يحدث مثل الموت"!

ولا أرى في الموت جمالا إلا حين أنظر إلى هذا القبر.. قبر صديقي وحيد وبجواره قبر عائلته وبالجوار قبر زوجتي لبنى.

سألني سعيد في حيرة: ما كل هذه الكمية من الزهور يا عمي؟

ابتسمت في ثقة قائلا: زهرة وضعها كل من عرف قصته.. وزهرة كل يوم مني بعدد أيام عمري.

- لهذه الدرجة كان عزيزا عندك؟

- كان بالنسبة لي قلب الحياة.. قصة حب لا ينضب معينها أبدا.

- ما المكتوب هناك على قبره؟

- "سمية- بير- جميلة".. والبقية قد لا تأتي ولكن الغرام سيعيش."

-وما معني هذا ومن هؤلاء؟

-تعال معي أولا لنضع تلك الزهرة على قبر لبنى ثم أحكي لك كل شيء.

وضعت الزهور على قبر لبنى وأنا دامع العينين ثم نظرت إلى قبر صديقي وابتسمت وقلت لنفسي: آآآآه أيها المجنون.. ما الحياة إلا بعض من لحظات أنينك وجنونك وغرابتك.

دخل علينا حارس المقبرة صائحا: أهلا بك أستاذ سليم.. من معك يا ترى؟

- أنه ابن أخي يا صالح

- أهلا أهلا بك.. شرفتنا يا أستاذ....

- سعيد

- مرحبا بك أستاذ سعيد.. خذ هذه الزهرة وضعها على قبر الأستاذ وحيد.

ابتسمت لصالح وهمست لسعيد:

- إنه من عشاق قصة وحيد.

- هل يعرفه جيدا؟

- لا يا عزيزي فقط خاف البعض من قصته وظن البعض أنه ولي.

- لقد زدت من فضولي لمعرفة قصته.

-حسنا حسنا سأرويها لك.. يا صالح احضر لنا المقاعد من الداخل.

سمعنا فجأة وقع أقدام نسائية تقترب بصوت كعبها العالي ونظرت خلفي وقلت في دهشة: سمية؟؟؟؟

صعقت هي من المفاجأة أيضا وصاحت فاغرة الفاه: سليم؟؟؟ يا لها من صدفة.

كان وحيد صديقي يصفها دائما بأنها دعاء استجيب له للأنوثة بالخلود.. أو أنها أمنية تتحقق كل صباح.

- كيف حالك يا سمية؟ سعيد جدا برؤيتك.

- أنا أيضا يا سليم.. ومن الذي معك؟

- أنه ابن أخي.. سعيد.

- فرصة سعيدة.

قاطعنا سعيد في تطفل قائلا: هل حضرتك المكتوب اسمك على....

صمت فجأة واستشعر الحرج مما قاله ونظر حوله وابتسم في براءة وقال: لا شيء.

ابتسمت سمية في خجل وقالت له: نعم.. أنا.. كما تعتقد.

كانت محتفظة بجمالها الأخاذ ورائحة عطرها الذي تعرفه من على مسافة أميال.

سنوات قد مرت على وفاة صديقي وحيد وعلى قصته العجيبة.. يقول نزار "إن الكلام يموت حين يقال".. إلا قصة وحيد وسمية فإنها تزداد جمالا حين تقال وخصوصا حين تحضر سمية بنفسها.

هناك ثلاثة أنواع من العشاق: نوع يقسم أنه سمع صوت الملائكة.. ونوع تشعر أنه سمعها بالفعل.. ونوع آخر لا يتحدث عن الملائكة.. لأنها تعيش في وجودهم وبين خفق أحلامهم دائما".

وكان وحيد صديقي من النوع الثالث.. دائما وأبدا يا صديقي.. أنت نوع العشاق المفضل لدي كيوبيد.

"سمية"

وضعت سمية الزهور على قبر وحيد ولم تتمالك نفسها وبكت كالأطفال كلما تذكرت بداية قصتهما معا.

كان وحيد يردد لي دائما "سمية هي فكرتي الأسمى.. هي لحظة التجلي الروحي ومعراجي الروحي الأوحد والأبقى".

نظرت إلي فجأة وهي تكفكف دموعها وقالت: هل تتذكر آخر يوم يا سليم؟ لم أفهم حتى الآن ما قاله في الورقة التي تركها لي قبل أن يموت.

. ما الذي قاله لكِ يا سمية؟

. قال لي "حتى المانترا لم تأخذ مني نسماتك يا سمية فلماذا فرقونا؟"

. المانترا.. نعم صحيح.. كنتِ أنتِ أقوي في قلبه من ألف حب آخر.

. ولكن ما معنى هذا؟

. اجلسي يا سمية.. سأحكي لكِ مع سعيد كل شيء عن وحيد.. أنا أعرف أنكِ جزء كبير من القصة ولكن هناك أجزاء أنا وحدي أعرفها واحتفظ بها في قلبي كل هذه السنين.

تحمس سعيد وهو ينظر لي بلهفة: نعم يا عمي كلي آذان صاغية.. وما أجمل الحكاية في حضور البطلة نفسها.

. لكن تعالوا معي في البداية.

تعجبت سمية وقالت: إلى أين؟

. إلى هذا القبو لكي أحضر لكم دفتر وحيد الأزرق.

. دفتره الأزرق؟

. نعم أنها مذكراته التي كان دائم التعلق بها بعد فراقك.

. بعد الحادث الأليم؟

نعم لقد فاتك الكثير.. كل شيء مذكور هنا في هذا الدفتر.

فتحت القبو الذي كان بجوار المقابر وكان ملكا للعائلة.. كنت أضع به الدفتر الأزرق وتمثالا صغيرا من رحلته الآسيوية إلى "تايلندا" وصورة لحبيبته الثانية "بير".

أزلت التراب عن الدفتر ووقعت الصورة من يدي وأمسكت بها سمية وقالت في غضب وغيرة أنثوية: من هذه؟

. بي

. بي؟؟ من هي بي؟ ولماذا يضع صورتها في دفتره؟

. رويدك يا سمية ستعرفين كل شيء وستعرفين أنك الأولى في قلبه دائما.

أغلقت القبو خلفي ثم عدنا إلى جوار المقبرة وجلسنا مرة أخرى.. نظرت إلي سمية وأنا ابتسم بعيني باكيا بقلبي: تذكرته بكل تفاصيله في وجهك يا سمية وكأنه أصبح شبيها لكِ من فرط حبه لكِ كما يقولون أننا نشبه من نحب.

"المحبة تضمكم إلى قلبها كأغمار حنطة.

المحبة على بيادرها تدرسكم لتظهر عريكم.

المحبة تغربلكم لتحرركم من قشوركم.

المحبة تطحنكم فتجعلكم كالثلج أنقياء.

المحبة تعجنكم بدموعها حتى تلينوا، ثم تعدكم لنارها المقدسة،

لكي تصيروا خبزاً مقدساً يقرّب على مائدة الرب المقدسة"

جبران خليل جبران

فصول من حياة وحيد

"مذكرات الدفتر الأزرق"

كأني أحاول الوصول للحياة من جديد.. من أنتم؟ كأن البث انقطع عني فترة ثلاثة أشهر وذهبت إلى الحياة الأخرى ثم أحاول بكل هدوء أن أنقر على ميكروفون وأهمس لكم "هل تسمعونني؟ لقد عدت من جديد".

كنت دائما لا أحبذ فكرة كتابة المذكرات ولكن ما مر بي في الفترة الأخيرة جعلني أفكر أن أجعلها عادة يومية.. أنا غاضب جدا.. أكاد أحترق.. أكاد أتشقق كالبركان.. غاضب من كسر القلوب وتفريق الأحبة والأمنيات الكاذبة ورجال السياسة الفاسدين ومن كسر أحلام البسطاء ومن حظي العاثر ومن حرماني من سمية.

غاضب من القدر ومن السماء ومن الحياة ومن المهرج الذي قابلته ولا أستطيع أن أجزم هل كانت المقابلة في أوهامي أم كان موجودا بالفعل.

ولكن قبل أن أصب عليكم أنتم أيضا لعناتي دعوني أقص عليكم القصة من البداية.

صحوت اليوم على أصوات تهنئة ومباركات لا أفهمها.. ماذا فعلت وما هذا المكان وما؟.. قاطعني صوته وهو يقول: روماني في خدمتك.. أخيرا فعلتها لقد كنت في حالة يرثي لها.

قلت له في حذر: ما الذي فعلته؟ وأين أنا؟

. ستعرف كل شيء في وقته ولكن استرح الآن قليلا.

الكثير من الأطباء من كل حدب وصوب وكلهم يتهامسون ومنهم من يقيس ضغطي ومنهم من يأخذ عينة دم ويقرأ في بعض الأوراق.

شبه فاقد الذاكرة.. أستعيد كل شيء بهدوء.. ولكن أي هدوء؟؟ لقد تذكرت الآن آخر ما حدث أني فقدت عائلتي في حادث أليم.

صرخت في فزع وهستيريا وسمعت صوت الطبيبة رضوى وهي تقول: لقد بدأ يتذكر.

نعم بدأت أتذكر وأشعر الآن بأن عمري قد أصبح ألف عام ولكن بلا شعرة بيضاء واحدة.. كأنني ندبة على جبين الزمان كلما نظر للمرآة ألمت به الرغبة في شطبي من ذاكرة جبينه..

كأنني بيت في قصيدة اختلف حوله النقاد.. هل هو سبب كسر وزن القصيدة؟ أم هو خطأ رؤية العالم لي؟

رأيت الشمس لأول مرة منذ فترة.. لا أعرف هل كنت نائما أم ميتا وأنتظر تفسيرهم لي.. ولكن كأنها لم تشرق اليوم لي.. أراهن على زيها الذهبي أنها تشرق لهم ولم تشرق لي.. لم تعد تشعر بأي رغبة كي تغطي جسدي بصفرتها.. حتى الشمس تحب وتكره!

أشعر أن وقفت كأنها لحظة حداد.. على عمري المنفلت مني وحبي الضائع وعائلتي التي فقدتها.

رضوى التي عرفت اسمها لأول مرة منذ قليل خرجت قليلا تهمس لطبيب ربما هو المشرف عليها ثم تنظر إلي في توجس.. أفيق تدريجيا فأجد سبعة أشخاص ينظرون إلى في توجس أيضا ولا أدري ما الذي اقترفته من أجل كل هذا الخوف في أعينهم؟؟ صدقوني أنتم لا تعرفونني جيدا فربما أشفقتم على حالي.

صعدت إلى قاعة الطعام وأنا أشعر بكل شيء حولي كانت كل الهمسات تنتهي عند مروري.. ما زلت لا أدري ما هي جريمتي ولكني عرفت أخيرا من أستاذ إيهاب كل شيء عندما نظر إلي بتمعن أثناء مضغي للطعام وقال لي: تريد أن تعرف كل شيء أليس كذلك؟

قلت له في إصرار وبصوت متثاقل من أثر العقاقير: أكاد أجن.. أرجوك قل لي ما الذي يحدث؟ أي مستشفي هذه؟

قال لي: جلستك ربما تكون قريبة سيقولون لك كل شيء ولكن لأنني مررت بنفس الظروف أشفق عليك سأقول لك ما تريد.. هل تتذكر أي شيء؟

قلت: أتذكر الحادث ولكن لا أعرف كم مكثت في هذا المكان أشعر بأن فترة طويلة قد مرت وأنا هنا.

قال: نعم.. ثلاثة أشهر وأنت هنا تصارع الموت والكوابيس.. لقد كدت أن تقتل روماني العامل في هذا المستشفى.. أنت في مستشفى للصحة النفسية لإعادة تأهيلك وحسب ما سمعت أيضا أنك قضيت شهور أخرى في مستشفى في العناية المركزة بعد الحادث ولكن بعدها دخلت في هلوسات وصراعات عنيفة فجاءوا بك إلى هنا.

. هل تعرف من الذي جاء بي؟ هل بقى أحد من أفراد عائلتي بعد الحادث؟؟

. للأسف لا أعرف المزيد من التفاصيل ولكن اجتماعك مع رضوى سيكون قريبا وستزودك بكل ما تريد أن تعرفه ولك أيضا مكالمة قريبا.

قلت في تعجب واضح: مكالمة؟؟ وهل أنا ممنوع من المكالمات هل نحن في سجن؟

. المكان له قواعد صارمة ولبعضنا هو أشبه بالسجن.. السجن الأبدي.

قالها في حسرة وخرج مهزوما ولم أفهم لماذا سيكون للبعض كالسجن الأبدي ولكنه انسحب من المائدة وتركني أنظر للباقين وهم يتفرسون في وجهي وفي عيونهم فضول لا أفهمه.

انقضت الليلة ونمت دون مزيد من الأسئلة.. قالوا لي إن لي موعدا غدا لأفهم كل شيء حتى المكالمات التليفونية بحساب ولي مكالمة واحدة غدا.. حسنا سأنتظر للغد كي أفهم كل شيء.. مستعد أن أقايض عمري كله وأعرف ما هو مصير عائلتي هل بقى منهم أحد.. وهل هناك أخبار جديدة عن سمية؟ ومن أتى بي إلى هنا؟

لم أستطع النوم كان صوت باب الحمام المشترك مزعجا.. أجلس في عنبر مع بعض المرضى.. رغم أنها تبدو مستشفى باهظة الثمن ولكن كانت أسوء نقطة هي باب الحمام المزعج.. كان رامي الذي يفتح الباب كل فترة كما عرفت قصته تاجر سابق خدعته زوجته وأخذت أمواله وهو من عائلة غنية وكان كلما شتمه أحدهم يصيح بصوت أجش: "سأقاضيك في المحكمة".

كانت العقدة مسيطرة عليه.. ولكن قبل أن أستطرد في عقد غيري دعوني أنتظر حتى الغد لأعرف مشكلتي أنا أولا وحل لغزي وحياتي.

لم أنم تقريبا إلا ساعتين وقمت متلهفا وقال لي زميلي المريض: موعدك اليوم مع أبلة فاهيتا.

لم أركز في عبارته بالتأكيد لأني في مستشفى للصحة النفسية ولا أعرف حالة من حولي ولكني فهمت أنه يلقب رضوى بـ "أبلة فاهيتا".

تم استدعائي وذهبت بحركة ثقيلة وصوت أثقل إلى مكتب رضوى وقالت بابتسامة مرحبة: أهلا وحيد.. كيف حالك اليوم؟

فقدت عائلتي وخرجت من العناية المركزة والآن في مستشفي نفسية فكيف سيكون حالي.. هل هناك غباء أعمق من هذا أم هذا ما يستحق تاج الملكية؟

قلت لها في استهزاء: على خير ما يرام.. الحياة جميلة.

فهمت أني أسخر منها وقالت: أنا أشعر بك أعرف أنك قد قاسيت الكثير وتريد تفسير لما يحدث حولك الآن.

لقد كانت فترة عصيبة يا وحيد أثناء سفرك إلى منزلكم في الإسكندرية حدث لك ولعائلتك حادث مروع لم ينج سواك.. دخلت في غيبوبة وكانت حالة صفائح الدم غير طبيعية على الإطلاق وكنت شبه ميت مع كسور ومضاعفات وما أن بدأت في النطق مرة أخرى كانت أشبه بالهلوسات وهي تأثير ما بعد الصدمة.. كنت تتحدث عن شخص ببدلة أنيقة يمسك بأوراق الخريف ويهدد حياتك وأمور غريبة أخرى ولكنك كنت تصيح بعنف "ابعدوا عني أوراق الخريف سأحقق أمنيتي بنفسي أيها الملاعين" ولا أحد يفهم ما تعنيه.. كان صديقك سليم دوما معك وهو من قدم أوراقك للمستشفي ودفع مصاريفك ويتابع الحالة يوميا على الهاتف.

البقاء لله.. أعرف أنك في حالة صعبة وفقدان الأب والأم والأخ هي صدمة العمر ولكن الصبر يا وحيد والإيمان بالله هو الحل للخروج من هذه الصدمة المروعة.. سنقف بجوارك ونعيد تأهيلك وثق أن الكل يحبك وأصدقاؤك سيبقون معك.

نظرت إليها وإلى الأرض في حزن شديد وقلت لنفسي "رجل الخريف حقيقة لا وهم لو تعلمين يا رضوى"

غادرت الغرفة وتعرفت إلى مزيد من المرضى في القسم الذي بقيت فيه.. منهم "محمد أسامة" دي جي في أفراح وحفلات كبرى في فيلل ومناسبات خاصة وديلر في نفس الوقت يتعاقى من الإدمان.. ومنهم من قابلته في قاعة الطعام "أستاذ إيهاب" الذي عرفت أن زوجته وابنته هم من أودعوه هنا للتخلص منه ولا يستطيع الخروج إلا بإذن منهم رغم أنه يبدو سليما تماما.. يا لحقارة البشر ينكرون ويبعدون أقرب الناس لهم لتحقيق سعادتهم على حساب شقاء الآخرين.

أولى لكم أن تبقوا في عصر المقايضة لا المال.. لكي تبدلوا ذممكم بفردة حذاء مقطوع وضميركم بقطعة خبز عفن.

اقترب مني روماني وقال لي: لقد كدت تقتلني بهذه المنضدة لولا عم سيد الذي أنقذني في آخر لحظة.

عم سيد هو حارس الدور فالمكان مكون من عدة أدوار وقاعة الطعام في الدور الأخير والدور عبارة عن شقة كبيرة للغاية بها عدد من الغرف وحمامان مشتركان.

قلت لروماني: أعتذر لك بشدة ولكنك تعرف أني لم أكن في وعي وما زلت أحاول أن ألملم تفاصيل آخر فترة من حياتي.

نظر إلي وربت على كتفي وقال: أعرف هذا وأتمنى أن تتحسن في أسرع وقت ولو احتجت إلى أي شيء سأكون موجودا لخدمتك.

مازلت الصورة القاتمة لحادث السيارة وفراق أبي وأمي وأخي يحيي لا تفارق خيالي.. الخنجر لا يخرج من أحشائي.. أشعر كأني أضحية في الفايكنج ليتقرب بها أحدهم إلى "الفالهالا" فردوسهم المنتظر.

أو كأنني جزء في رواية انقطاعات الموت ولا يجد الموت لي سبيلا في هذا المكان حتى أدوات الانتحار قد سلبوها مني من سكين أو مقص أو شفرة حلاقة أو حبل..

لم يعد هناك ما يستحق الحياة أحاول الموت كل لحظة لقد خسرت حياتي وعائلتي ومن المؤكد أني خسرت سمية.

تبا لك أيها المهرج أنت وأوراق خريفك القذرة.. دمرت كل ما بنيت أحلامي وأمنياتي عليه.

أتمنى أن أخرج من هذا المكان اللعين لأزور قبر أبي وأمي وأخي.. أضع زهرة من عمري على كل قبر.. فقدانا لأحبائنا فقدانا لزهور عمرنا.. فقدانا لعطر الحياة ونهمنا لها وشهيتنا لقبولها.

مازلت في انتظار المكالمة الموعودة.. تأملت الجدول المعلق في غرفة الممرضة لتحديد إذا كان لا مريض له جلسات كهربائية أم لا.. مجرد الفكرة مرعبة في حد ذاتها فقد تعودت دائما في الأفلام أن المصحات النفسية هي مكان لـ"الفورمات" كما في مصطلحات الكمبيوتر.. وكأنهم يعيدون البشر لحالة المصنع إذا كان يجوز وصفهم بهذا، ولكني لم أجد اسمي في الجدول فتنفست براحة واطمئنان.

كنا نأخذ أدوية لا نعرف ما هي.. في أماكن التأهيل النفسي الممرضة تسير على جدول ولا يصح لك أن تعترض عليه.. تأخذ بضعة حبات في فمك بجرعة ماء مرة واحدة ثم لا تعرف ماهية إحساسك بعدها.. جائع أم مصاب بالغثيان أم سكير أم ماذا.. فاقد للزمن والمتعة ولحواسك أحيانا.. يقولون إنها مجموعة عقاقير لتهدئتي مع بعض الفيتامينات والحديد ولكني لم أعد أهتم.. كل ما أريد أن أسمعه الآن صوت صديقي وموعد الخروج من هنا.

نزلت في جدول الأنشطة إلى الحديقة والبعض منا دخل إلى ورشة الرسم للتأهيل النفسي.. يعاملونني كطفل وربما هم معذورون بعد ما وجدوه مني من غرائب الأفعال والقول.. لقد أصابتني نوبات كما قالوا لي سببت فيها الجميع وضربت الجميع بل كدت أقتل أحدهم.. لقد أعلنت على هذا المكان الحرب الشعواء فما زالوا يعاملونني بحذر بالغ وترقب.

دخلت إلى قاعة الرسم ورأيت اللوحات المعلقة الغريبة التي رسمها المرضى في المكان ثم أعطوني لوحة لرسم أي شيء ربما هو جزء من تقييم الحالة فرسمت كوبا من القهوة وتركت المكان بملل.. لا أميل أبدا إلى الرسم ولا أعرف كيف أرسم فهوايتي كانت دائما الكتابة وهي الدواء الوحيد الذي سيعيدني لطبيعتي.

كعادة أي مكان له قواعد خاصة يتم ضرب هذه القواعد عرض الحائط ويتدخل المال والسطوة والنفوذ أيضا في تغيير اللعبة.. فالأكل ممنوع داخل الغرف بعد التاسعة مساء والسهر أيضا ممنوع ولكن محمد أسامة كان يضع قواعده الخاصة بوجبة مجانية لمن يطلب "الدليفري" من مطاعم في الخارج.. يطلب الممرض له سرا أيضا الأرقام التي يريدها من هاتفه الخاص بعد أن يتأكد أن المشرفين قد غادروا المكان.

عرفت كيف احتال على القواعد في هذا السجن ولكني لم أخالفها وانتظرت مكالمتي وجاء وقتها أخيرا.

جاء الصوت عاليا وأنا في غرفتي: وحيد.. مكالمة من أجلك.

خرجت بسرعة وأمسكت سماعة الهاتف وسمعت صوت صديقي سليم قائلا:

عدت أخيرا يا صديقي.. لقد افتقدت صوتك وافتقدت أيامك يا وحيد

قلت له في حسرة: كيف أعود يا وحيد ومن أين أعود.. لقد تركتني الحياة في الغياهب ومحت عني زهور ذكرياتي

. ستصنعها من جديد يا صديقي.. ستعود كما تعودنا عليك لا تكن متشائما.. كل شيء سيمر.

فكرت كثيرا في جملته "كل شيء سيمر".. ربما تصلح هذه الجملة ليطمئن بها الحمقى ولكن لا شيء يمر صدقوني.. أنا أكتب مذكراتي ولا أكتب كتابا للتنمية البشرية كي أكذب على من يقرأ هذه الصفحات يوما ما بعد موتي.. لا شيء سيمر.. ربما يقرأ أحدكم الآن هذه الكلمات ويبتسم وكانت نيته وهو يمسك قلمه الفسفوري أن يضع بعض الخطوط على كلمات جميلة متفائلة ليضعها في بعض جروبات الفيس بوك ويقول "ضعوا اقتباساتكم أيضا يا أصدقائي".. ولكني أقول لك يا صديقي العزيز وأنت تخط بقلمك "تبا لك" أرجو أن تقوم بوضع هذه الكلمة أيضا.. أنا لست مدرب تنمية بشرية.. أنا أميل للتشاؤم يا عزيزي.. أنا أتعاطى أقراص "إميل سيوران" و"شوبنهاور" في وقت واحد.. ما الذي يدعوك للتفاؤل في هذا العالم الرديء.

كما قال "ساراماغو": إن التفاؤل شكل من أشكال الغباء، أن يتفاءل المرء في أوقات كهذه ينم إما عن انعدام أي إحساس أو عن بلاهة فظيعة.

هذا العالم ينقلب عليك رأسا على عقب حتى في أكثر أوقات سعادتك.. هذا العالم الغريب لا يقدم لنا الهدايا.. يريدنا أن نتعب في كل شيء من أجل لا شيء في النهاية.. كارثة واحدة وقد تضيع كل ما

بنيته لسنوات ثم يقولون لك كلمات مثل أصبر أو ستمر الأيام.. لم أعد أتحمل هذا الهراء.

أكملنا محادثة الهاتف وقال سليم في تردد: هل مازلت مصر على قصة الخريف التي كنت ترددها كل يوم؟

قلت له في حسم: لا داعي الآن يا صديقي عندما أخرج سأروي لك كل شيء.

في هذه المستشفيات من الأفضل أن تلعب الدور الذي يريدونك أن تلعبه، حتى وأن كنت مؤمنا بحقيقة لقائك برجل الخريف الذي انقلبت بعده حياتي ولكنهم لا يصدقون هذه الحكاية ويعتبرونها وهما فاعترف أمامهم أنها وهم حتى تخرج.. العب بسياستهم طالما كنت على أرضهم.

ثلاثة أشهر في هذا المكان وغير مسموح لي بزيارات، فقط مكالمات قصيرة من صديقي يحاول أن يطمئنني فيها أن حياتي ستتجه للأفضل وروتين عقاقير ووجبات وخروج للحديقة ورسم اللوحات المجنونة.

في هذا المكان مثل الخارج"مناطحة للديكة".. مدمنين المخدرات الذين جاء بهم أهلهم إلى هذا المكان كلهم أغنياء فالكوكايين ليس للفقراء.. تشعر في جلستهم بالتعالي على من حولهم وعلي بعضهم البعض بذكر الحسب والنسب.. ولكني لم أدخل في هذه المشاحنات الجانبية رغم أني وحيد علام الدمنهوري.. وإذا كانوا لا يعرفوا من هو علام الدمنهوري فهي مشكلتهم.

أسرتي ميسورة الحال.. لا ليست ميسورة فقط بل عائلة مليونيرات ولو يعلم الجميع هنا ما ترك لي في الخارج من أموال وعقارات وأراض ربما لصمتوا قليلا واسترحت من عوائهم ولكني لم أكن متكبرا يوما ما بسبب المال الذي صنعه جدي وأبي ومن قبلهم.

رغم كل أموال أبي إلا أني لم أوفق في قصة حبي، بعد سنوات في الجامعة ومعرفتي بسمية كانت الصدمة المعتادة.. طالما رأى أبوها أن أبي رجل أعمال فاسد كان يقتات على عمله السياسي.. ورغم أن جدي نفسه من كبار الأغنياء إلا أن العمل في السياسة ولعبة المناصب قد لوثت سمعة أبي خصوصا لمعارض شرس مثل والد سمية.

كان الرفض حاسما وقاطعا عندما دخلت بيتها يوما ما وحاولت خطبتها ورغم حبنا المتبادل إلا أن والدها كان له الرأي الأخير.

آلاف من قصص الحب تذبل يوميا بسبب أو بغير سبب، مكتوب على قلوبنا أن تغلق أبوابها يوما ما رغم أنها فتحتها خصيصا للحب.

حينما كنت طفلا كنت ألعب ألعاب الفيديو وأحاول الوصول للأميرة.. أحاول أن أحمي الأميرة بعد أن أقتل الوحوش.. ولكن حينما كبرت عرفت أن الأميرة هي من ستحفظني وتحميني وتضعني داخل قلبها.

لطالما رأيت الحب كأداء "منفرد" لأغنية ما.. كتبت كلماتها الملائكة واللحن بداخل شرايينك.. فكل شخص يؤديها في هذه الحياة بطريقته.

الحزن يغطيه الحزن.. لم أعرف من أين بدأ الحزن من فقد سمية أم من قبلها أم من لحظة وفاة عائلتي.. لا أصدق ما أنا فيه يا رجل الخريف المجرم.

أستاذ إيهاب كان في الخمسينيات ولكنه مازال محتفظا بطلة شبابية مع بعض الخصلات البيضاء التي كأنها وجدت فقط كي توقع في دفتر شيبه.. يبدو لأول وهلة وأول انطباع تأخذه عنه وهو يبتسم أنه مذبوح من الداخل.. نعم هناك بعض الناس رغم ضحكهم إلا أن هناك لمعة في أعينهم تدل على الحزن الأصيل المدفون في أعماقهم، لمعة تأخذ من نقر خطاهم طبولا لحربها على البهجة، ولكنه كان حزنا

مقدسا كما قال نجيب محفوظ حتى لو حزنت يجب أن يكون حزنك مقدسا.

قال لي وهو يبتسم تلك الابتسامة الحزينة ونحن نشاهد مباراة كرة قدم في القسم الخاص بنا في المستشفى: لم أكن أتخيل أبدا أن يحدث هذا.. حتى ابنتي قد اقتنعت بكلام أمها أني في حاجة ماسة إلى علاج، دخلوا ليلا لغرفتي وقالوا هيا بنا وأخذوني معهم بإذن عائلتي، كانت آخر نظرة من ابنتي لي وكأنها تقول "أنا آسفة يا أبي"

منذ أن خرجت على المعاش زادت حدة المشاكل بيني وبين زوجتي ولكن لم أكن أتخيل أن تصل إلى هذا الحد.

حاولت أن أواسيه وأنا أحتاج ألف من يواسيني وقلت له: لعل الأمور تتحسن في النهاية أنتم أسرة واحدة مهما قست القلوب ستعود العلاقة كما كانت يوما ما.

قال لي بإشراقة وجهه وهو يبتسم: هل تظن؟

قلت وأنا أكذب من داخلي: بالتأكيد.

فجأة التفت حوله وقال وهو يهمس: عرفت أن لك موعدا مع اللجنة غدا.

قلت وعلامات الدهشة تشق وديانا في جبهتي: لجنة؟

. نعم اللجنة.. التي ستقرر مصيرك، لقد جلست أكثر من مرة مع الأطباء ومع الإخصائية الاجتماعية ولكن اللجنة تشملهم جميعا كي يروا إلى أين وصلت حالتك.

حسنا الآن تبدأ اللعبة، سأحاول أن أثبت لهم قدر الإمكان أنني تحسنت.. سأقول لهم ما يريدون سماعه حتى وأن كان مجرد عبث.

جاء اليوم الموعود وكان كل منا له رقم خاص أمام باب اللجنة..

"ما قبل الخروج من النار"

هذا المكان هو جهنم بالنسبة لي بلا تواصل اجتماعي ولا هاتفي ولا أي وسيلة تكنولوجية ولا أصدقاء ولا حياة.

لم أكن أتخيل أن أحصل على رقم للمثول أمام بعض الحمقى لإثبات أني ما زلت بعقلي.. كم هو صعب أن تكون موضع اختبار لكي تثبت شيئا بديهيا مع أشخاص يشكون في كل شيء.

كنت أنظر إلى أعضاء اللجنة وأسخر منهم وأحاول تخيل كيف تكون علاقة رومانسية بين اثنين من أفرادها.. أظن أنها ستكون علاقة شك في كل شيء، هذه الكائنات ولدت كي تشك في سلوكك وتضعك موقف اختبار وكذلك الحال سيكون بينهم البعض.

تخيلت أن الطبيب يقول لحبيبته: "لماذا تحركين قدميك بهذا الشكل.. أنتِ متوترة؟"

تقول له في تلعثم: و.. و.. ولما أتوتر.. هل سؤالك هذا محاولة الهروب من شيء ما..؟

يرد في غضب: بل أنتِ المتوترة.. أشعر أنكِ كنتِ تريدين قول شيء ثم خانتك الأحرف.

ترد في حسم: حسنا حسنا.. لو راقبت سلوكك في الفترة الأخيرة لعرفت من منا الذي يحاول أن يداري شيئا ما.. حتى طريقة انفعالاتك قد تغيرت.

مجرد تخيل هذا الحوار النفسي بينهم شيء يثير غثياني.. كنت أنظر إلى أرجاء الغرفة الواسعة وهي بجوار قاعة الطعام في الدور العلوي وأراهم حولي في دائرة يجهزون أوراقهم وأقلامهم لينقضوا على فريستهم.

تخيلت نفسي كالممثل الأمريكي جاك نيكلسون وهو يهرب من مكان العلاج بصحبة بعض المرضى.. شاهدت الكثير من الأفلام المرعبة وغير المرعبة التي تخيفني من الأطباء النفسيين والأخصائيين وطرق علاجهم وجلسات الكهرباء والأدوية التي تذهب العقل.. السينما لها تأثير كبير في حياتي حتى وأن كان كل هذا مخالفا للواقع ولكني مازلت أخاف من هؤلاء القوم وأجدهم كحفنة من مصاصي الدماء المفزعين.

سألني أحدهم وهو يمسك قلمه: هل تعرف ما هو تاريخ اليوم؟

في بداية كل حديث بيني وبين الأطباء يكون دائما السؤال الأول عن التاريخ، يتأكدون أني في كامل وعي الآن وأنا أحدثهم ثم يكملون طرح باقي الأسئلة.. سألوني هذا السؤال أكثر من مائة مرة خلال الفترة الماضية.

بأي تقويم أيها الطبيب؟ تقويم الجرح الذي لا يندمل من فراق سمية أم تقويم العذاب الأبدي بفقداني عائلتي الحبيبة أم تقويم الرعب الذي رأيته من رجل الخريف والذي لا أدري حتى الآن هل كان حقيقة أم مجرد هلوسات رأيتها في الفترة الماضية.. ربما كانت كوابيس في فترة العناية المركزة والفترة التي قضيتها هنا.. حتى أن الجميع قد سمعوا مني عن رجل الخريف فمن الواضح أني كنت أتحدث عنه بشكل مستمر في هلوساتي وأنا في حالة غير متزنة الآن لأقرر هل فعلا كان واقعا أم هذيانا.. لا أدري ولا أتذكر ولكني أشعر بأنه حدث في الحقيقة وسأكتشف الأمر بعد خروجي من هذا المكان.

بعدما تحدثنا عن المكان والزمان بدأ يتحدث عن حالتي وهي المرحلة التي يريد أن يطمئن فيها الطبيب ويسمع ما يرضيه وقال وهو يتفرس في ملامحي كالذئب: والآن بعد كل هذا يا وحيد.. هل مازلت ترى ما تقول عنه "رجل الخريف"؟

قلت بمكر: بالطبع لا، كانت هلوسات وذهبت دون رجعة.

قال وهو يشرح لي تفاصيل أكثر عن الحالة: أنت تعلم يا وحيد أن الظروف التي مررت بها كانت صعبة للغاية وهذا ما أدخلك في مرحلة اضطراب ما بعد الصدمة.. بعد أن أفقت من العناية المركزة عدت لوعيك فترة قصيرة ثم فجأة تذكرت تفاصيل الحادث وبدأت تصرخ بشدة وتقول "اقتلوا الوغد.. اقتلوه.. لقد قتل عائلتي وخدعني وجعلني أوقع على الورقة.. لقد وقعت.. أنا الخاسر.. أنا الميت"..

جاء بك صديقك إلى هنا وتكفل بمصاريفك لحين خروجك.. ولكي نطمئن على استقرار وتحسن حالتك سأسألك سؤالا آخر: هل تذكر ما الورقة التي كنت تقصدها وأنت تصرخ؟ ومن هو الذي تلقي عليه اللوم وتريد قتله؟

قلت وأنا أنظر له بحدة: لا أعرف عم تتحدث صدقني.. لقد كانت خزعبلات وأنا الآن مستعد تماما للخروج من هنا.. أشكركم لمجهودكم معي خلال الفترة الماضية وأريد حقا الخروج.

قال لي وهو يوضح المزيد من التفاصيل عن حالتي: لقد اخترعت شخصية معادية في عقلك لكي تلقي بها اللوم على فقدانك لعائلتك لقد كنت تتهم رجل الخريف هذا بأنه السبب في كل ما يحدث لك الآن، باختصار كنت في حاجة إلى أن تجد من تلومه لأنك لا تجد تفسيرا مناسبا لكل هذا الألم.

شخصية معادية في عقلي؟ بالطبع أذكر الورقة وبالطبع أعرف عما يتحدث ولكن لابد من إنكار كل شيء الآن كي أعرف الحقيقة بالخارج، في هذا المكان وروتينه القاتل وجدوله وعقاقيره وممرضاته وعلامات الحقن في ذراعي مستحيل أن أصل إلى أي شيء لا بد أن أخرج بأي ثمن.

أنا مثل طير لا يستطيع أن يتقيد بمكان ولا حدود، تذكرت حديثي القديم مع سمية أيام الجامعة حينما قالت لي: أنت مثل طير النورس حر طليق.

ابتسمت لها ونظرت إلى عينيها القمرية وقلت: وعيناك هي الميناء والمشتهى والمنتهى.

تشاورت اللجنة ليأخذوا القرار النهائي بعد ساعتين من الأسئلة والاختبارات وتقييم الحالة لقياس مدى التحسن ومدى القابلية لاستقبال العالم مرة أخرى ثم جعلوني أوقع على بعض الأوراق للانصراف من المستشفى.

بدأت بتجهيز حقيبتي لمغادرة هذا المكان الذي وجدت فيه ما وجدت في الخارج تماما.. عالم مصغر تجد فيه الخداع والمكر والجنون والحب الأبدي، فهذه القصص عاصرتها في فترة قصيرة قضيتها هنا.

أثناء زيارات قصيرة لصديقي سليم مع خالتي وابنها عمرو في صالة استقبال الضيوف كنت أرى "نور".

نور كانت فتاة ثلاثينية غدر بها الزمن وقتل حبيب عمرها فذهب عقلها إلى عالم آخر وكنت أسمعها تردد " كنت أراه في الفجر، ربما لا أحد يصدقني هنا ولكني مازلت أراه في ساعة الفجر".

وشاهدت حروب رجال الأعمال أمامي متمثلة في أبنائهم مدمني المخدرات الفخورين بثروتهم ومركزهم وكانوا يتفاخروا بوجودهم في مستشفي باهظة الثمن مثل هذه لدرجة أن أحدهم كان يقول "هذه هي المرة السادسة لي.. أحفظ كل جزء في غرفتي وفي كل الأدوار في المبني".

ويفتخر الآخر بتغيير نوع المخدرات إلى نوع آخر لم يفطن له أهله في البداية ولكن سرعان ما عرفوا وأودعوه إلى مكانه المعهود.

أثناء تجهيز حقيبتي كانت صدمتي الكبرى في أول شخص قابلته في صالة الطعام "أستاذ إيهاب" الذي ظننته ضحية زوجته وابنته ولكني عرفت من حارس الدور وهو يروي لي كل تفاصيل حياته قائلا:

إيهاب رجل غريب الأطوار فأنا نفسي كنت أصدق كل ما يحكيه في البداية ولكن عملي في هذا المكان علمني ألا أثق بأحد حتى أعرف قصته الحقيقية بعد تحقيق، كان يظهر لي بمظهر ضحية العائلة التي أودعته هنا دون سبب مفهوم، حتى قسمات وجهه وكأنها تقول لك أنه بريء وهم مذنبون حتى صدمت عندما عرفت الحقيقة.. لقد كان يعذب زوجته بأعقاب السجائر المشتعلة في أنحاء متفرقة في جسدها وهو يربطها إلى كرسي لمدة يومين كاملين عندما أصابته حالة غريبة فجأة.

جاء هنا أول مرة وهو يلعن العالم والناس والظلم وكنت أصدقه ولكني عرفت من الأطباء مدى قسوته في رسم خريطة جديدة لجلدها.. كان يتلذذ بالتعذيب رغم أنه عاش عمره شخص هادئ ومتزن ولكن الحالة أصابته بعد خروجه على المعاش بدون سابق إنذار.. قالت زوجته أن الحياة معه أصبحت مستحيلة بعدما تكرر الأمر أكثر من مرة وكانت تشفق عليه وتعرف أنه ليس هذا الشخص العنيف غريب الأطوار فطلبت أن يأتي إلى المستشفى وتأمل في علاجه وعودته لحياته الطبيعية".

صدمت منذ أن عرفت قصته الحقيقية فهذا الشخص يظهر بمظهر القديس ولم أتوقع أن يكون بهذا العنف ولكن المرض النفسي يغير كل شيء.

وكان خروجي محملا بالرسائل، كلما جاء موعد خروج أحدنا تكون لحظة الوعد، وعد بأن يحمل رسالته المكتوبة إلى العالم الخارجي، إلى أقربائه وأصدقائه وكأنه يستنجد بهم ويقول "أرجوكم أريد تفسير لما يحدث أنا لا أستطيع حتى الحصول على مكالمة تليفونية، أريد أ أعرف ماذا يجري معي هنا وكيف وصلت لهذا المكان".

ويتم إرفاق رقم هاتف مع الورقة مع المغادر.. جلس معي ثلاثة من القيمين وأوصوني أن أسلم رسائلهم حتى إيهاب الذي لا يعرف شيئا عما فعله وارتكبه من عنف كتب ورقة تقول " أهانت عليك عشرة كل هذه السنوات؟"

كان يري نفسه الضحية، ضحية زوجة وابنة لم يراعوا العشرة ولا الحب الذي قدمه لهم طيلة سنوات عمره.

*دليلك للمصحة النفسية إذا دخلتها يوما ما: اعرف هذه القاعدة جيدا "كل هذه الرسائل لا تصل لأن الحارس يعرف جيدا هذه الألاعيب ويفتش حقيبة المغادر بقوة دون علم من كتبوا الرسائل ويتم مصادرة هذه الرسائل جميعا وأرقام الهواتف وكل شيء".

هبط المصعد بي مع حارس الدور وأفراد الأمن إلى الطابق الأرضي الذي أراه لأول مرة لأني دخلته فقط لمرة واحدة أثناء تسجيل الأوراق وأنا في حالة عدم وعي كامل بما يحدث حولي.. حان موعد تسليمي لأقربائي، ولأني فقدت عائلتي فسيتم تسليمي لصديقي الذي أودعني هذا المكان وهو "سليم" من تبقى لي من أصدقاء أوفياء من أيام الجامعة.

بعد أن مضى الأوراق وأنهينا إجراءات الخروج قال لي: "حمد لله على سلامتك يا صديقي العزيز".

أخيرا أتنفس الهواء الغير محمل برائحة الحقن والفيتامينات والعقاقير النفسية والاختبارات وورشة الرسم وكل هذه الأشياء الكريهة.

أخيرا سأزور قبر أمي وأبي وأخي وأبكي حتى المطر على فراقهم فحتى البكاء لم أكن أستطيع أن أبكيه في الداخل إلا في سري وكأن الجو العام داخل المستشفى خانق حتى للبكاء والتعبير عن المشاعر فكل ما تشعر به اللامبالاة وإحساسك بأنك روبوت لعين له جدول لكل شيء حتى الاستحمام ودخول الحمام بمواعيد لعينة.

أخيرا سأنظر للسماء وأسأل الله "لماذا يحدث كل هذا لي؟ ماذا فعلت كي أحرم من حب حياتي ثم عائلتي؟".

خرجت مع صديقي إلى الخارج وركبنا سيارته وذهبنا إلى منزله حتى يتم ترتيب الأمور الخاصة بمنزلي وتنظيفه بعد هجره لفترة طويلة أثناء غيابي.. الحمد لله على نعمة الصديق الوفي في هذا الزمان.

"الموت الأخضر"

كنت أظن الموت يطل فقط باللون الأسود.. ولكن منذ خرجت عرفت أن للموت ألوانا عدة منها اللون الأخضر.. لون الربيع.

حرية الخروج يملأها سجن الأسئلة والخوف من القادم، رغبة في الذهاب إلى القبر يغلب عليها طابع المأساة والرغبة في آلة زمن سريعة أتناولها ككبسولة تعيدني ألف عام إلى الوراء بعمر حزني وآلامي التي تخطت عمر الأنبياء.

وصلنا إلى منزل سليم واستقبلتنا زوجته "لبنى" وهي تقول: وحيد.. طالت الغيبة.. شرفت بيتك الثاني.

قلت لها: أنتم أهل كرم شكرا لكم على كل ما فعلتم من أجلي.

نظر إلى سليم في عتاب: ما فعلناه؟ نحن أصدقاء عمر يا وحيد أرجوك لا تردد هذا الكلام.. أنا لم أفعل شيئا من أجلك أنه حق الصداقة.

قلت في حسرة ناظرا إلى الأرض: وهناك من لم يراعوا حق القربى.. أهلي يا سليم.. لم تسأل عني غير خالتي.. رغم كثرة عددهم إلا أني لأول مرة أشعر أني مقطوع من شجرة كما يقولون.

قال وهو يحاول أن يغير الموضوع: ستعرف كل شيء في وقته المهم الآن الطعام الذي ستعده لنا "لبنى" فمن المؤكد أنك مللت أكل المستشفيات وتشتاق نفسك لطعام حقيقي.

قلت: سأتناول القليل يا سليم ثم سنذهب معا كما وعدتني.

نظرت زوجته إلينا وقالت مستفسرة: أين ستذهبون.. على الأقل خذ قسطا من الراحة يا وحيد.

قلت لها دامعا: سأزور أهلي أولا كي أستريح.. لن أعرف طعم الراحة حتى أودعهم.

"لبنى" كانت صديقة سمية في كلية الآداب كلما رأيتها كانت تبعث في نفسي الراحة هي أول من لمح لسمية بحبي، أول ميعاد كان بتدبيري مع لبنى، وكنت أنا وسليم في كلية تجارة قسم لغة إنجليزية وتعرف سليم على لبنى في كافيتيريا الجامعة عن طريقي وأحبها من أول نظرة.

كانت جميلة وردية الخد دقيقة الأنف، عيناها واسعة الحدود والمدى غارقة في سحب اللون الأزرق بغطاء شعر رقيق يكشف عن بعض الخصلات.

تغيرت الآن لأن الزواج يغير كل شيء ولكن ما زالت محتفظة برونقها وجمالها وكلما رأيتها تذكرت أيام سمية، أجمل أيام حياتي.

كانت ربة منزل ماهرة جدا تعد أشهى الوصفات، كانت السفرة معدة بطريقة منظمة متناغمة ومليئة بالأصناف التي لم أرها منذ وفاة عائلتي ودخولي المستشفيات ورغم لذة الطعام ورائحته الشهية ولكني لم أتناول غير القليل جدا.

مازال الحاجز داخلي يمنعني عن متع الحياة، مازال إحساسي بأني لم أودعهم يجعلني أشعر بالذنب.

قمت من على المائدة وقالت لبنى: وحيد أنت لم تكمل طعامك!

قلت لها: شكرا يا لبنى ولكن لابد أن أذهب الآن.. طعامك شهي جدا.. ماهرة كالعادة.

نظر إليها سليم مستأذنا ثم قام ورائي وقال لها: أكملي أنتِ يا لبنى ولا تتعجلي مثلنا سنذهب الآن ولن نتأخر.

قالت: مع السلامة في حفظ الله.

كان سليم يسكن في الدقي خرجنا من منزله إلى مقابر العائلة في مدينة نصر ووجدت الأزهار المتناثرة على قبر أخي وأبي وأمي.

لم أتمالك نفسي من البكاء قبلت الأزهار وسقطت أمام القبر وأنا أتذكر أيامي مع أمي الغالية.. الأم هي مفتاح الحياة أن فقدتها قضيت عمرك متخبطا بين قلوب لن تحبك أبدا مثلها، لن ترى أبدا النظرة في عينيها في عين أي امرأة أخرى حتى وأن قالت غيرها أنها ستفديك بحياتها، وحدها الأم هي من ستفديك بحياتها على أرض الواقع لأنك حياتها بالمعنى الحرفي، خرجت منها وعشت معها وإلى قلبها دوما تعود.

تذكرت أبي وخلافي السياسي معه ولكن لقائنا يوميا في العمل في الاستيراد والتصدير.. دائما ما قلت له: الله أعطانا كل شيء لماذا لا تبعد عن عالم السياسة المزعج؟

كان ينظر لي ويضحك ويقول: النفوذ غير المال يا وحيد.. ستكبر وتفهم كل شيء.

ويا ليتني لم أفهم.. كنت أحب أبي بشدة ولكني كنت أتمنى أن يخرج من دوامة السياسة، كان لا يعطي الوقت الكافي لعائلته بسبب الحزب والاجتماعات بعد العمل.

ورغم أن السياسة كانت من أسباب بعدي عن سمية ولكني لم ألوم أبي أبدا بل كنت ألوم الدنيا والحظ والقدر.

أخذت زهرة من على قبر أبي ووضعتها بين زهور قبر أمي وكأني أجمع بينهم مرة أخرى، كانت أمي دوما تسهر ليلا تنتظر عودة أبي متأخرا، كانت تعشقه ولكنه يكون جافا معها أحيانا، كم غيرتك السياسة يا أبي، وكم كرهت هذا العالم.

أما أخي المشاكس الحبيب فكانت لي معه الكثير من الذكريات.. نظرت إلى قبره وابتسمت وتذكرت أيام معرفته بقصة حبي مع سمية وكان يريد أن يسمع مني المزيد عنها وقراءة أشعاري التي كتبت لها.

كان أخي ما زال في سن المراهقة وكان يريد دخول كلية صيدلة ولكن ماتت كل الأحلام في هذا الحادث اللعين، ذهبوا وأخذوا ما تبقى من قلبي معهم وأخذت سمية الجزء الباقي.

لا أعرف كيف نجوت.. ماتوا جميعا ونجوت أنا لسبب ما.. كنا في طريقنا لفيلا الإسكندرية التي يملكها أبي ولكن سيارة نقل مسرعة فجأة انحرفت يمينا ودهست سيارتنا بكل قسوة، لم تبق ولا تذر.. آخر ما رأيت كانت نظرة أمي وهي تطمئن علينا في المقعد الخلفي.. لم تكن تفكر في ألمها وساقها الملتوية وجروحها التي شقت جبينها ولكنها تفكر في أولادها، ألم أقل لكم لا يوجد مثل الأم؟.

ولولا أني مازلت أبحث عن الحقيقة لجزمت الآن أني رأيت رجل الخريف في تلك السيارة التي دهستنا.. كان يخرج لي إصبعه الأوسط متحديا ولا أعرف هل هي أوهامي أم لا، ولكني سأبحث ولو كلفني البحث حياتي عن حقيقة ما حدث لي قبل الحادث في مرحلة استعادة ذاكرتي التدريجية وكتابة مذكراتي.

أذكر كل شيء ولكن لا أعرف هل كان رجل الخريف من هلوساتي أم حدث فعلا ربما بعد راحة عدة أيام سأستطيع أن أتذكر.

نظر إلى سليم في إشفاق وقال لي مواسيا: البقاء لله يا وحيد صدقني هم الآن في مكان أفضل.

بالطبع في مكان أفضل.. تلك الجملة الصادقة الوحيدة التي يؤمن بها المؤمن أو الملحد أو أيا كان مذهبه، هذا العالم ليس المكان الأفضل هذا العالم للحزن والشقاء وفقدان الحب والأحباب.

الحزن ميلاد جديد، الخروج من رحمه يجعلك ترى العالم بنظرة أخرى، نظرة الحزين للعالم مبصرة، فالقلب الذي أعمته الأحزان أمدته بالبصيرة، قلب أسقطته الجراح يفهم العالم أكثر من ألف قلب سعيد.

خرجنا من المقابر ونظرت لها نظرة وداع أخيرة وركبنا سيارتنا في اتجاهنا مرة أخرى إلى منزل سليم، عدت إلى المنزل جسدا وتركت روحي مع أسرتي.

قالت لي لبنى: أرسلنا العاملة إلى منزلك تقوم بالتنظيف وسيكون جاهزا في غضون يومين.. ولكن ابق معنا يا وحيد أسبوع أو أكثر كي نطمئن عليك في فترة النقاهة.

قلت لها: شكرا لكِ يا لبنى.

دخلت غرفتي وتركت خيالي يعاقر الأحلام كالخمر ورأيت وجهه مرة أخرى كالكابوس، فهو لا يفارقني أبدا.. هذا المجرم، الذي دمر حياتي.

"الوعد الخجول"

وضعت مذكرات وحيد جانبا ولاحظت ترقرق الدموع في عين سمية وقالت وهي تنظر إلى الدفتر بحزن: كان دائما يقول إن الوعد الخجول هو الأخ للكذبة البيضاء فالوعود يجب أن تكون حاسمة. لماذا رحلت يا وحيد وتركتنا لكل هذا الألم؟

قال سعيد متأثرا بما سمعه حتى الآن من دفتر وحيد: أنا حزين لما عاناه ولكن لي سؤال.. من هو رجل الخريف الذي يردده دائما بين سطوره؟

قلت له: قصة كبيرة يا سعيد سأكملها لكم من دفتر وحيد الذي كتب عنه كل شيء.

كانت الشمس تغيب وتلقت سمية مكالمة من زوجها لأنها تأخرت ثم قالت إنها ستعود في اليوم التالي لسماع المزيد عن حياة وحيد بعد زواجها وفراقهما حتى عودتها يوم موته.

يوم أن تزوجت سمية كان يوم الدفن حيا لوحيد كما قال لي ذات يوم: اليوم يا سليم أنا موجود بينكم ولكني شبه ميت.

انعزل أيام في غرفته وكان منقطعا عن الطعام بعد أن رفض والد سمية الارتباط بسبب والد وحيد والخلافات في مذهبهم السياسي.. وبعد عامين من الرفض زوجها والدها لابن عمها الذي تقدم لها وعرفت أن العودة لوحيد أصبحت مستحيلة بعد الرفض القاطع من والدها وأمها.

كان وحيد مشهورا في الجامعة بثرائه ولكن لم يكن له أصدقاء كثيرون غيري أنا وأدهم الذي هاجر إلى الخارج وسامر الذي يعيش في

الغردقة الآن في عمل وكان يطمئن على وحيد تليفونيا باستمرار أيام تواجده بالمستشفى.

كان وحيد يقول لي: كل هذا المال ولا أحد.. كل هذه الثروة ولا سعادة.. خذوا كل أموالي وأعيدوا لي سمية.

حتى خرج من غرفته في يوم بعد مرحلة اكتئابه مبتسما وهو يؤكد في أول مقابلة لي معه ويقول بشكل هستيري لم أعهده في ملامحه: ستعود يا سليم.

قلت له متعجبا: ما الذي سيعود يا وحيد؟

قال: سمية ستعود لي وأعرف كيف أفعل هذا.

كنت أعرف أنها حالته النفسية الغير مستقرة من يوم فرح سمية ولكن لم أكن أتخيل أن تأخذ القصة هذا المنحى من الجنون والعبث والغرابة.

عادت سمية في اليوم التالي وجلسنا أنا وهي وسعيد مرة أخرى لخوض جولة جديدة في مذكرات وحيد التي لم تكن تفارقه منذ دخوله المستشفى وعودته لوعيه حينها وقراره بأن يكتب مذكراته ويسجل فيها كل شيء حدث له.

كانت سمية جميلة كعادتها ومتأنقة كما أطلق عليها وحيد دائما أنها "فراشة" ترفرف على زهرة عمره.. كان وحيد أيضا من عشاق قراءة الأساطير وكان يقول لي عن سمية:

هل تعلم يا سليم.. سمية تذكرني بأساطير الصين في الجمال.. كانت هناك امرأة تسمي "يانج" حبيبة إمبراطور قديم يسمي "شوان زونج" قالوا عنها أن الزهور كانت تستحي من جمالها وتطأطئ رأسها لها.

وأسطورة أخرى عن "وانج تشاو جين" كانت تغني بصوت عذب حتى سمعتها بجعة ونسيت أن تحرك جناحها وسقطت من السماء.

وأسطورة عن "سيشي" التي أغرقت السمكة من فرط جمالها.. قالوا إن سمكة كانت تقفز في النهر ورأت سيشي وهي تغسل ثيابها فسقطت مغشيا عليها في قاع النهر.

أمسكت الدفتر مرة أخرى لنكمل ما بدأناه من مشوار أغرب من الخيال مع وحيد ومذكراته.

"رحلة في مجرة الهوى"

كان ابن الرومي من شعراء العصر العباسي وكانت المآسي في حياته تذكرني بحياتي، كان مشهورا بفقد الأحبة وتكالب ويلات الزمان عليه، بعد أن ضاعت ثروته توفي والده ثم والدته وأخوه الأكبر وأيضا بعد زواجه توفت زوجته وأبناؤه.

لطالما كان الحزن رفيق الشعراء وملازم لحياتهم ومدرا لدمعهم، وكذلك كانت قصة الخنساء التي رثت أخويها صخر ومعاوية بعد فقدها لهم.

أحيانا يجد المرء عزاءه في تشابه قصته مع آخرين، رغم أنه نوع من الأنانية أن تخفف مصيبتك بذكر مصيبة غيرك ولكن كان هذا دوما للبشر العلاج الشافي، فلا يفل الحزن إلا حزن أقوى في قصة أخرى.

عدت إلى منزلي مرة أخرى بعد أن ودعت سليم ووعدته بزيارة أخرى قريبة وكان لي موعد مع المحامي الخاص بعائلتي من أجل أمور الميراث وخصوصا أن أملاك أبي ليست بالشيء القليل، استنشقت رائحة عائلتي في المنزل وجلست أفكر فيهم ولكن رن جرس المنزل في الموعد المحدد ورحبت بالأستاذ ماهر صديق والدي ومستشاره القانوني.

أعددت له الشاي وجلسنا نتحدث في كل التفاصيل، أصبح كل شيء ملكي، أصبحت لي شركات وقصر وأربعة منازل وسيارات وأراض وأشياء لا أستطيع حتى أن أسيطر عليها، عاش أبي يلهث وراء المال طيلة حياته على حساب علاقته بالناس وعلاقته بأسرته وزوجته.

حدد لي المحامي موعدا آخر في مكتبه لمعرفة كافة التفاصيل والحسابات البنكية وكل ما يتعلق بالأمور المالية، كنت أعمل مع أبي

منذ تخرجي في الشركات الخاصة بنا وأعرف عنها الكثير ولكن لم أتخيل أن أكون أنا من يدير كل هذه الثروة الهائلة.

كل هذه الأموال وفقدت كل من أحب، حصدت أوراق المال وفقدت أوراق حياتي وشهادة ميلادي.

تذكرت ما قاله محمود درويش:

سأصير يومًا ما أريد.. سأصير يومًا طائرا، وأسلّ من عدمي وجودي.. كلّما احترق الجناحان اقتربت من الحقيقة، وانبعثت من الرماد.. أنا حوار الحالمين، عزفت عن جسدي وعن نفسي لأكمل رحلتي الأولى إلى المعنى، فأحرقني وغاب.. أنا الغياب.. أنا السماويّ الطريد.

وسألت نفسي هل سأصير يوما ما أريد؟؟ وهل ستعود لي السعادة مرة أخرى في يوم ما؟

تذكرت الماضي وكيف بعد أن تزوجت سمية كان لدي إصرار عجيب على عودتها لي يوما ما.. كنت مستعد لفعل أي شيء، كنت أستفيد بشكل كبير من ثروة أبي في السفر حول العالم ولكن هذه المرة كان السفر حول العالم ليس من أجل الأماكن الأثرية التي أحببت مشاهدتها دوما ولكن السفر من أجل عيون سمية من أجل أن تعود إلي مرة أخرى.. سافرت كي أتمنى أمنية، واحذروا دائما من أي شيء تتمنوه في حياتكم فهذه ليست مجرد مقولة بل هي حقيقة ستعرفونها يوما ما في حياتكم.

استنشقوا كل شيء أولا، استنشقوا الحب قبل أن يبتلعه قلبكم وعقلكم واستنشقوا الأصدقاء قبل أن تسلموهم مفاتيح أسراركم، استنشقوا الدين قبل اعتناقه وفرض وصاياه عليكم واستنشقوا الأماكن وأشعروا بها قبل أن تمنحوها الحق في فرض جمالها على أبصاركم.

سافرت العديد من البلاد الأوروبية والعربية ودول أخرى حول العالم ولكني لم أكن أسافر من أجل الحب، بعد زواج سمية وبكائي الطويل وانعزالي فكرت في فكرة مجنونة نفذتها قبل حادث فقدان أسرتي الأليم، فكرت أن أسافر لأستعيد سمية مرة أخرى.. تمنيت أمنية!

الحب كبيت خشبي دافئ، وكلنا عرايا في الخارج مع قاتل مجنون اسمه كيوبيد.. الكل يريد أن يدخل إلى البيت ليحتمي من البرد القارس وكيوبيد لا يرحم ولا يترك ضحية بدون سهم الغرام.

الحب نهر باك لا يستطيع التوقف عن البكاء ولا عن جريانه المستمر.

تغيرت كثيرا بعد فقدان سمية، لم أعد وحيد القديم ولا أعرف حتى ما الذي أحبه أو أكرهه بعد الآن ولكن إصراري على عودة سمية كان أشبه بالجنون، ظن صديقي سليم أني فقدت عقلي تماما وبدأت ألجأ للدجل والحيل الرخيصة ولكن كان لابد لي من أمل جديد يعيدني إلى الحياة ولو عن طريق الكذب.

بحثت كثيرا عن كيفية تحقيق أمنيتي في الحياة، جاءت الفكرة في البداية في رأسي ورفضتها تماما ثم قلت ولما لا، أنا أسافر حول العالم بشكل طبيعي كل عام فلما لا أستغل السفر لمحاولة استعادة الحب المفقود.

تعودت على رائحة المطارات وفراق المطارات وعبق البلاد التي أزورها في كل أنحاء العالم، ربما في السفر سبع فوائد ولكن له أيضا بعض الصعاب وخصوصا لحظات الرحيل وحسرتك حينما تشعر أن البلد التي تزورها تسبق وطنك بسنين ضوئية ولكن السفر كان دوما متعتي.

قرأت بعض سطور عن أماكن تمني الأمنيات، لم يكن الحجز أو أسعار الطيران أو أي شيء يمثل عائقا لي، حجزت التذاكر للطيران والفنادق وجهزت كل شيء واستعددت للرحلة العجيبة التي غيرت حياتي، رحلة تحقيق الأمنيات.

في بلاد كثيرة حول العالم أماكن مخصصة ليتمنى السائح أمنية، وكالعادة يجزم البعض أن أمنيته تحققت بالفعل والباقي يتهمهم بأنهم مخرفون ولا يؤمنون بالمعجزات.

ولماذا لا نكذب على أنفسنا أحيانا كي نعيد مجرى الأمل لحياتنا حتى ولو كان وهما مؤقتا يحيينا؟ لماذا نصر على لغة المنطق ولا نضيف بعض المعجزات لحياتنا كي تزيدنا إصرارا على التمسك بها؟ لماذا لا أعيش في عالم الخيال والأميرات السحرية بعد أن مزقني الواقع ومنطقه وحقيقته؟

حينما سألتني سمية يوما ما عن أمنيتي في الحياة قلت لها: أنتِ أمنيتي الوحيدة يا سمية ولو كان هناك شجرة للأمنيات لحفرت عليها اسمك في كل غصن.

لم أكن أعرف حينها أن هناك بالفعل شجرا للأمنيات حول العالم يضع حوله السائحون أمنياتهم كمحاولة أخيرة للوصول إلى أمنية لم تتحقق ومحاولة أخيرة لاستعادة ما فقدوه.

خططت لرحلتي كما أفعل دائما فالتخطيط قبل السفر يجعله أسهل وأوفر، فبالرغم من مال أبي الوفير ولكني كنت من عشاق توفير المال وليس البذخ وكنت أعتبره نوعا من الذكاء أن أصل لأفضل العروض والخصومات في الفنادق والطيران وأختار أياما معينة لحجز تذاكر الطيران لأنها تكون الأوفر، فليس معنى أن تكون غنيا أن تصرف أموالك دون حساب ودون وعي.

ذهبت في رحلاتي إلى تركيا أولا للوصول إلى شجر الأمنيات المنتشر في أكثر من مكان هناك، بعد أن وصلت إلى مطار أتاتورك أخذت سيارة إلى الفندق في منطقة تقسيم الجميلة الممتلئة بالعرب والمطاعم زرت أكثر من مكان في إسطنبول منهم أيا صوفيا ومنطقة السلطان أحمد

وقصر توب كابي الرائع وكذلك قصر دولمة بهجة ذو السقف الذهبي البديع.

جلست في كافيه شهير هناك وقابلت بعض العرب وسألتهم عن قرية كاياكوي وقالوا إنها بعيدة من إسطنبول ولكن رحلتي كانت تشمل أيضا مدينة أنطاليا في تركيا واستطعت الذهاب من أنطاليا إلى كاياكوي لزيارة شجرة الأمنيات الشهيرة.

قرية تاريخية تضم عددا من الكنائس وكانت يونانية قديما، كانت الشجرة التي وصلت إليها مليئة بأمنيات البشر حول العالم وأيضا بعض من الأقمشة المكتوب عليها بأقلام ملونة.

بعد أن أنهيت رحلتي في تركيا وصلت إلى روما وبعد أن وصلت إلى الفندق سألت عن مكان تواجد "نافورة تريفي" وأرشدوني إلى مكانها.. كان المكان مليئا بالسياح من كل أنحاء العالم، روما مدينة مزدحمة وهناك تشابه في الطباع بين الإيطاليين والعرب في العصبية وطريقة الكلام، وأكثر ما ميز الرحلة في روما كان الأكل الإيطالي الشهير وخصوصا أنواع البيتزا التي تعودت عليها في زيارة سابقة، رغم زياراتي السابقة لبعض البلاد إلا إني لم أكن أزور إلا المعالم الأثرية فلم تكن أبدا أماكن تحقيق الأمنيات تخطر لي على بال أو أهتم بها إلا بعد فراق سمية، كان في النافورة تمثال منحوت لإله البحر نبتون وهو يركب عربة تسحبها مخلوقات بحرية ويصاحبها إله الصحة والخيرات.

فعلت مثلما فعلت الصفوف التي وقفت تقول أمنيتها وتريد أن تتحقق، أدرت ظهري للنافورة وألقيت عملة وتمنيت أمنيتي "أرجو أن تعود لي سمية ولو كلفني الأمر حياتي"!

وبعدها كانت رحلتي في التشيك إلى تمثال القديس "جون" في براغ وكان المعتقد دوما أن هذا المكان من أماكن تحقيق الأمنيات وفعلت نفس الأمر ونفس الأمنية التي تمنيتها في روما.

وأثناء رحلتي ذهبت إلى النمسا العظيمة إلى "نافورة ليوبولد" لتحقيق أمنيتي، كنت كالمجنون لا أصدق أنني فقدت سمية فقررت بيأس أن أفعل أي شيء حتى وأن كنت بداخلي لا أصدق أن له نتيجة فعلا.

كانت بداية الأمنيات في بلدي مصر، فمصر بها أكثر من مكان يحاول فيه الناس تحقيق أمنياتهم أيضا مثل بئر مسعود في الإسكندرية والبحيرة المسحورة في محمية رأس محمد، وتسمى البحيرة المسحورة لأن مياهها تغير لونها سبع مرات يوميا حسب ضوء الشمس.

كان البدو قديما يقومون بالسباحة فيها ثم يلقون الحجارة ويقومون بالتمني، حينما وصلت إلى هناك قبل سفري إلى أوروبا قلت لأحدهم وأنا أقف حول البحيرة قبل النزول فيها: هل تصدق أن الأمنيات تتحقق هنا؟

قال لي في إصرار: لقد حققت هذه البحيرة حلمي في الزواج ممن أحب.

وكأنه يسمع ما بداخلي ويعرف ما أتمناه، كأنه يقول لي اطمئن أنها تحقق ما تريده تحديدا في الوصول إلى حبيبتك ولقد نجحت معه الفكرة.

أعطاني بعض الحجارة في هذا المكان الساحر وألقيتها وأنا أتمنى.

كان المكان أيضا مخصصا للسياحة العلاجية للشفاء من الروماتيزم بجانب التمتع بسحره وتغير اللون وعالم الأمنيات.

أعطاني بعض التمر وجلس معي وحكى لي قصته حول البحيرة المسحورة في منظر بديع وملهم وقال مبتسما وهو ينظر إلي: هل هو الحب ما جاء بك إلى هنا؟ هل أمنيتك عن من تحب؟

قلت له متنهدا: ومن غيره؟ سبب ترحالي وشقائي.

قال لي: ستتحقق أمنيتك.. لا تيأس يوما ما ستتحقق لقد كنت في أشد مراحل حياتي يأسا ولكن البحيرة غيرت حياتي وكانت الرمال هنا كأنها تبتسم لي يومها، كأن مرسوما عليها ابتسامة نقشها أحدهم بعصاه، كانت حبيبتي فاطمة أصيبت في حادث سقوط من على الحصان وكان ظهرها في وضع خطير وبعد عدد من العمليات كانت نصف مشلولة ولكني بكيت عند البحيرة بكاء طفل رضيع كنت أبكي وأنا أصرخ وأتمنى الشفاء لها، أتمنى معجزة من خالق المعجزات، كنت سأتزوجها على أي حال حتى وهي مشلولة ولكني كنت أريد أن أرى ابتسامتها مرة أخرى التي فقدتها بسبب حالتها، كنت أريد أن أستعيد فاطمة حبيبتي التي أعرفها، وقد حدث، يوم ما ذهبت لأزورها فوجدتها تستقبلني وهي تمشي على قدميها وتبكي بفرحة قد أبكتني وعانقتها وأنا لا أصدق ما يحدث ثم تزوجنا بعد ذلك حول البحيرة ومازلت أتمنى وأتمنى كل شيء من هذه البحيرة وأزورها دوما وأنا مؤمن بسرها الخفي.

قال لي إن اسمه محمد وأنه يجيد قراءة الكف أيضا، أعطيته كفي ليقرأه ثم قال مترددا وهو يتصبب عرقا ويتلعثم في الكلام: ربما.. ربما.. فقدت قدرتي على القراءة فأنا لم أمارس قراءة الكف منذ وقت طويل يا صديقي.

قلت له وأنا أرى الخوف في عينيه: قل لي الحقيقة ماذا رأيت؟

قال وهو يخفي شيئا ما: لا شيء.. صدقني لا شيء.

قصصت عليه قصتي وقلت له إن حبيبتي سمية تزوجت بسبب خلاف بين أفكار العائلتين ولكنها كانت قصة حب متبادلة بيني وبينها في أيام الجامعة، رأيت طفليه معه في هذه الرحلة يأتيان إلينا بالطعام في كرم وترحاب وأكلت معه وأنا معجب بقصته ومتحمس أن تستجيب البحيرة لي مثلما استجابت له في تحقيق أمنيته ووصوله لحب حياته.

ولكني مازلت متخوفا من محاولة هروبه من إجابتي على قراءة الكف، ماذا رأيت يا محمد وتصببت عرقا؟، هل رأيت مصيري وترددت؟ هل رأيت حبي لا يعود إلي مرة أخرى؟ لا أعرف ماذا رأى في خط عمري وقدري وأحزنه للغاية وظهر ذلك جليا في ملامحه.

كنت هناك قبل سفري إلى رحلتي الأوروبية بيومين فقد خططت الذهاب إلى البحيرة المسحورة ثم أوروبا ختاما بإسبانيا والمغرب في النهاية للاستجمام هناك وكان كل تخطيطي لهذه الرحلة أن تدوم لشهر واحد وأعود إلى مصر.

والدي لم يمانع الفكرة بالطبع لم أقل لأحد من أهلي أني سأذهب لتحقيق أمنيتي عن طريق إلقاء الحجارة أو الوقوف بجوار التماثيل فلو عرفوا حقيقة نيتي ربما عرضوني على طبيب نفسي فهم لا يصدقون طبعا في مثل هذه الأمور ويعتبرونها دجلا وجنونا.

كانت الأماكن كثيرة ومتعددة حول العالم ولكني بالطبع لن أزورها كلها فهي ستستغرق شهورا وشهورا فتقريبا معظم البلاد حول العالم يوجد بها أماكن لتمني أمنيات وبعض النساء يذهبن إلى شجرة الأمنيات في هونج كونج لتمني الحصول على مولود أو التوفيق لأولادهم أو استعادة حب مفقود، شجرة الأمنيات كانت منتشرة في أكثر من دولة وأشهرها هونج كونج تكتب على ورقة كل رغباتك ثم تلقيها على

أغصان الشجرة ويقولون أن كلما كان الغصن أعلى كلما زادت فرصة حصولك على ما تتمنى بسرعة.

سفر وترحال ووطن مفقود في عينيها، هناك في حضن قرنفلة تتنفس لتعيش الحسن كنت أنام ولا أعرف للنوم طعما منذ فقدانك يا سمية، أفتقد لشهد النحل المحلى بجبينك ومسكر من أحلامي العذبة بك.

وأسير طويلا في كل بلد فوق جسور من أجنحة فراش ملكية كي أصل لحبات التوت وأسقط من قلبي قرص الشمس الموجوع لكي يأتي الصباح.

ما أطول الليل في سفري، لا أنام، أتقرفص كجنين في بطن زهور حدائقها كي أشعر بالدفء، وتمر الأيام ويسير العمر على أطراف أصابعه ويتسلل كي يتعلم فن العد ولغة حساب العمر في مملكة الحب.

ألعب مع الدنيا بورق التاروت وخرافات الأمنيات لعلها تتحقق، لعلها تهديني لطريق عالم الغرام مرة أخرى، سافرت إلى إسبانيا ونزلت في فندقي المعتاد في برشلونة وزرت معالمها ثم ختمت رحلتي بالمدينة العربية الرائعة مراكش ثم زرت في النهاية شفشاون.

مدينة مغربية عريقة بطعم التاريخ ومقسمة إلى أحياء تاريخية مثل حي الأندلس والصبانين وحي السويقة، تتميز باللون الأزرق على الجدران في كل مكان يغطيها اللون الأزرق في مشهد بديع وكأن فنانا يرسم لوحة سريالية ليبهر بها العالم أجمع من المغرب.

أسير في جولة بين الجدران الزرقاء والطرق الصخرية والزهور المزروعة على الجانبين في مشهد بديع، جئت إلى هنا في استراحة محارب بعد سفرياتي السابقة بحثا عن تحقيق أمنيتي، لم آت لشفشاون لتحقيق أمنية ولكن لاستجمام أخير قبل العودة إلى القاهرة.

أغصان الشجر الخضراء تتسلق حول الجدران الزرقاء كثعبان الكوبرا حول أبواب البيوت العتيقة، سرت في الطرقات بين بائعي الأقمشة الذين ينادون بصوت عال من أجل بيع بضاعتهم حتى وصلت إلى قهوة شعبية لأشرب كوبا من الشاي، استوقفني صوت سمعته من بعيد لفرقة موسيقية وصوت شخص يقلد "الأراجوز" على عربة كبيرة في عرض أشبه بالمسرحي ويلتف حوله الناس من كل مكان.

شربت الشاي ودفعت ثمنه وقمت أشاهد ما يحدث، في المنطقة الواسعة في السوق توقفت السيارة وبدأت أسمع صوت الشخص الذي يمسك بالدمى بين يديه، دمية على شكل رجل ودمية على شكل رجل بدوي يقول:

"وهل ستحقق أمنيتك بالنزول في البحيرة؟؟"

لم أصدق ما سمعت، ما الذي يحدث لي في شفشاون؟؟ من هذا الذي يتحدث عن البحيرة والأمنيات هنا من خلف ستار وعن طريق دمية؟

كانت الناس تصفق للعرض والسياح حول العربة الكبيرة في كل مكان ويكمل قائلا وهو يحرك الدمية: نعم أنا المجنون الذي يريد تحقيق أمنياته عن طريق بحيرة وشجرة.

كان الناس يضحكون على العرض وكأنهم يضحكون على حياتي، لا أعرف من هذا الشخص الذي يعرف أدق أسرار حياتي والغرض من وراء سفري لتحقيق أمنيتي.

مستحيل أن تكون صدفة، حاولت التسلل خلف العربة لرؤية الشخص ولكنه كان مختبئا داخل ستار كما العادة في عرض الأراجوز.

ثم قال فجأة في نهاية العرض: لعلي أحقق لك أمنيتك!

كان العرض لمدة نصف ساعة وظللت أنتظر هذا المختل الذي يعرف شيئا عني كي يخرج بلا جدوى، سارت العربة بسرعة وألقى القائد ورقة من أوراق الشجر الذابلة بجواري وهو يهرب مكتوبا عليها "انتظرني هنا غدا في السادسة مساء".

لم أستطع أن أنام طوال الليل، شربت فناجين عدة من القهوة المغربية حتى الصباح وأنا أنتظر الموعد كي أجد تفسيرا لما يحدث، من يعرف سري؟ ومن له الجرأة على عرضه أمام الجميع في عرض ساخر؟

ذهبت إلى نفس المكان في السادسة كما قرر الموعد انتظرت بلا جدوى لم يأت أحد أبدا، وفي أثناء عودتي وجدت شخصا ينقش على الجدار الأزرق ويكتب "سمية"!!

لم أتمالك أعصابي عرفت أنه هذا الأحمق الذي يعرف كل شيء عني، أسرعت إليه وأمسكته من ياقة القميص في عنف وقلت له صارخا: من أنت أيها المختل؟ ماذا تريد وكيف تعرف كل هذا عن حياتي؟

تحرك في خفة غير مفهومة وفك يدي عنه وقال: مهلا مهلا هل أعرفك يا هذا؟ هل أنت مجنون؟

قلت له في حدة: لا تدعي الجنون.. أنت تعرف عن ماذا أتحدث؟ أنت الذي قمت بالعرض أمس وتحدثت عن أمور في حياتي وكأنك كنت تعيش معي، وأنت من حددت موعدا لنا في السادسة هنا.

قال وهو يبتسم ويخلع قبعة من على رأسه: آه.. تذكرتك.. مرحبا بك.. رجل الخريف في خدمتك.

قلت وأنا أتفحص ملامحه المريبة: رجل الخريف؟ ماذا تعني؟ وماذا تعرف عني؟ ولماذا تكتب اسم سمية على الجدار؟

قال في حزم: هل ظننت أن بضعة أشجار وتماثيل ستحقق لك حلمك؟

قلت له: وما دخلك في هذا وكيف عرفت أصلا؟

اختفي فجأة من أمامي في شكل مفزع ووجدته خلفي ويرتدي قناعا كأنه بلياتشو في سيرك ثم قال: ربما أعرف عنك كل شيء.. ربما أعرف رغبتك في عودة سمية وربما حتى كنت معك في نفس البحيرة.

بدأ الخوف يتملكني من هذا الشخص وصرخت في وجهه كي أداري خوفي: لا تنطق اسمها على لسانك أيها القذر الخسيس.

بدأ يدور حولي ويقول: ولماذا تقول عني قذر؟ لماذا لا يكون القذر هو أنت من تريد أن تحرمها من زوجها لتعود إليك؟ لماذا لا تستسلم يا وحيد؟؟

كان يعرف اسمي أيضا ويعرف أن سمية متزوجة هذا الشخص، كأنه ساحر.. سمعت كثيرا عن السحر في المغرب ولكن هل هذا مجرد ساحر عادي؟

قلت له: سمية كانت دوما لي.. حلمي منذ البداية وستظل حلمي وستعود إلي يوما ما.

وقف فوق المنضدة وهو يصيح في: لقد مللت منكم.. مللت من أمانيكم ورغباتكم التي تريدون تحقيقها عبر الجمادات.. نافورة وأشجار وبحيرة أيها المخابيل الضعفاء.. ما أخذ بالقوة يسترد بالقوة.. هل التوسل سيحقق لك أمانيك.. هل صدقت محمد في البحيرة.. محمد لم يتزوج فاطمة لقد ظل ظهرها كما هو وعاش وحيدا ولم يكن أطفاله هم من معه في الرحلة.

هذا الرجل يراقبني أشعر بالفزع.. حتى الحوار الذي دار بيني وبين محمد في البحيرة المسحورة يعلمه، يعلم كل تفاصيل الحوار السري بيني وبينه.

قلت له في استسلام وخوف: حسنا.. ماذا تريد مني وكيف أحقق أمنيتي؟

فتح لي علبة فيها عدد من أوراق الشجر الذابلة المهترئة وقال لي:

أوراق الخريف.. فصلي المفضل في العام الخريف، أكره الربيع والشتاء والصيف، أحب الورق الذابل أحب أن أراكم ذابلين أمام أحلامكم كي يأتي دوري وأحققها.. أنا من سيحقق لك أمانيك وكل مرحلة تفقد ورقة من هذه الأوراق حتى تعود لك سمية.. سيكون الاتفاق بيني وبينك مخيفا ولكنك ستحبه لأنك مجنون بسمية.

قلت له: وما هو الاتفاق؟ ولماذا افترضت أنني سأوافق عليه؟

أخرج لي ورقة من الأوراق الذابلة وقال لي وهو يشرح الاتفاق:

كل ورقة من هذه الأوراق مرحلة فقد.. ستفقد شيئا في حياتك.. أربع أوراق بأربع مراحل للفقد وفي النهاية ستعود لك سمية في آخر مرحلة.

. وما الذي سأفقده؟

. ربما شخص ربما شيء ما ليس ذا قيمة؟ اعتبره رهانا خطيرا ولكن أضمن لك عودة سمية.

. هل أنت ساحر أم ماذا؟

. ربما أكون ساحرا ما الذي يهمك في الأمر.. المهم هو أنك ستحقق كل ما سافرت من أجله حول العالم في فترة قصيرة.

. إنه اتفاق بلا ضمان واحد.. كيف أثق بك؟

. لا مجال للثقة الآن يا صديقي.. لقد أخترتك كي أنفذ لعبتي معك وأنت وافقت بالفعل أنا فقط أخطرك بما سيحدث

. متى وافقت أيها المجنون؟ أنا لم أقابلك قبل الآن.

. حسنا لقد وافقت ووقعت على الورقة بالفعل بتفاصيل الاتفاق.. لحظة وصولك إلى المغرب هل تذكرت حقيبتك الضائعة والورقة التي وقعتها كي تستلمها من المطار؟

. وما دخلك بتلك الحقيبة؟

. هل تذكر الشخص الذي كان يقف أمامك وأنت توقع في هذا الزحام.. حسنا بكل فخر كان أنا

ضحك ضحكة مرعبة واختفى مرة أخرى من أمامي ووجدته يقف على عتبة أحد البيوت بشكل معكوس ومفزع وقال: اليوم سأتمم لك حلمك.. سنبدأ المرحلة الأولى قريبا.. ربما تفقد عزيزا وربما تفقد شخصا بلا قيمة أصلا.

صرخت في فزع: اتركني في حالي أيها العفن.. لقد زورت الاتفاق لم يكن بإرادتي.

قال: بالفعل.. ربما فعلا ليس بإرادتك وربما كنت في الماضي آتي فقط لمن يستدعيني ويقوم بالشروط اللازمة لتحقيق حلمه ولكني قررت قلب موازين اللعبة.

بدأت أفكر فيما أسمع وأرى ووقفت مرعوبا وقلت: هل أنت شيطان؟؟؟

قال في سخرية: ربما.. وربما لا.. ولكنك لن تعرف ما مقابل عودة سمية إلا في نهاية اللعبة في المرحلة الأخيرة.. تذكر دائما في نهاية كل مرحلة ستجدني مع ورقة خريف.. سأغير فصول من حياتك سأتحكم في قلبك حتى وسأضع شروطي.

هل هي خيالاتي؟ هل هو شيطان ظهر لي في شفشاون؟ وكيف يأخذ توقيعي عنوة بدون إرادتي؟ ربما أنا في كابوس ما وليس حقيقة.

اختفى فجأة وعدت إلى الفندق لأجهز حقائبي لسفر مفاجئ قبل ميعاده.. سأحاول أن أبقي في حضن أصدقائي وعائلتي كي أنسى ما حدث لي في المغرب فربما كان محض جنون.

عدت إلى القاهرة بعد رحلة طويلة واستقبلني أبي في المطار ومعه سليم صديقي العزيز وقال لي مرحبا: ابن بطوطة قد عاد لنا.. أرجو أن تكون بأحسن حال الآن واستمتعت برحلتك.

تصنعت ابتسامة خرجت من عباءة الفزع وقلت: نعم كانت رحلة الأحلام فعلا كنت أحتاجها بشدة.

أتخيل وجهه في كل مكان، أخاف أن أختم أوراقي كي لا يكون منتحلا صفة شخص ما أو متنكرا وراء زي عامل في المطار ويجعلني أوقع على شيء جديد، أراه حولي في كل مكان، لا أعرف هل هو كابوس أم لا ولكني رأيته كالحقيقة أمامي، رأيته وأصابني أكبر فزع ورعشة خوف في حياتي، ذهبت أتمنى أمنية وعدت وأنا أتمنى أن ينسى الكون كل شيء فعلته، أخاف أن يفقدني سمية بدلا من أن يعيدها إلي، أخاف أن أفقد بسببه كل شيء عزيز وكل شخص عزيز عندي.

أصبحت أخاف من الأشجار، تلك الأشجار التي علقت عليها أمنياتي، أصبحت أخاف منها الآن بسبب ورقها الذابل وفصل الخريف.

بعد أن عدت من المطار استقبلتني أمي بالقبلات وقالت لي: أعددت لك طبقك المفضل "المكرونة بالبشاميل".

كانت أمي دوما تحاول إسعادي بشتى السبل، كانت تعرف أنني دوما حزينا وتقدر ذلك فهي تعرف جيدا مثلي أن المال لم يجعلنا سعداء، المال جعل أبي بعيدا عنها رغم أنه لم يكن كذلك، المال جعله جافا في التعامل وغير من كل صفاته ومن حبه لها، المال لم يجعلني أصل لفتاة أحلامي بل كان سببا في فراقنا، كانت أمي تحاول أن تخرج مني ابتسامة بشتى السبل وكأن ابتسامتي هي ابتسامة لروحها ومحاولة لإيجاد سبب للبقاء.

أمي تعرف مقدار حزني بعد زواج سمية وكان عندها أمل أن تكون الرحلة قد خففت عني قليلا ولم تكن تدري أنني جهزت الرحلة خصيصا لمحاولة استعادة سمية، اليوم أنا خائف، خائف عليكم جميعا من رجل الخريف، ما زلت لا أعرف من هو وماذا يريد مني ولماذا تحديدا أنا، لماذا دوما أنا؟

كان أخي الأصغر متشوقا لرؤية الصور لرحلاتي وسماع أخبار عن تلك البلاد التي يتمنى زيارتها قريبا، وقرر أبي أن نذهب إلى الإسكندرية بعد يومين من عودتي لقضاء يومين هناك.

كانت الرحلة الملعونة، كانت رحلة فقدان الأحباب، رحلة ذهاب بلا عودة، ذهبوا إلى عالم آخر وذهبت إلى المستشفى بعدها.

جهزنا الحقائب للسفر وركبنا السيارة وكنت أخاف، كان الخوف سلطاني ومولاي، أخاف عليهم أكثر من نفسي لا أعرف ما الذي سيحدث حتى بعد دقيقة من الآن، انحرفت السيارة بشكل غريب ودخلت العربية العملاقة من ناحية مقعد أمي وصدمتها أولا ثم فقدنا الاتزان تماما وانقلبت السيارة ولم أكن في نهاية الأمر أرى أي شيء

سوى وجه أمي ووجه رجل الخريف في السيارة الأخرى وهو يشير إلي بورقة مكتوب عليها "كل شيء سيتغير.. تمنى كما تريد.. سأحقق أحلامك"!

رأيت ابتسامته الساخرة الشريرة من خلف زجاج السيارة، كان الموت بين ابتسامتين، ابتسامة أمي البريئة وهي تطمئن علي في المقعد الخلفي وابتسامة هذا الوحش الدنس الذي غير كل شيء في حياتي.

كيف سيحقق أحلامي بالموت؟ هذا الشيطان لابد من إيقافه، لابد من قتله إن استطعت، ماتت عائلتي المسكينة ودخلت إلى المستشفى بلا حول ولا قوة ولا شبه ابتسامة.

أخذنا استراحة قصيرة من قراءة مذكرات وحيد وسألني سعيد في تعجب ودهشة وقال: لحظة واحدة يا عمي.. شيطان وخريف وأمنيات؟؟ ما الذي يحدث؟ من هذا الرجل بالضبط؟

قلت له مبتسما: مازلت لا تعرف وحيد يا عزيزي.. عندما نكمل سترى أغرب من كل ما سبق ذكره في المذكرات.

قال: هل هناك أغرب من هذا؟

قلت: ما زال في القصة الكثير، حياة وحيد كانت دائما لغزا.

لمست سمية دفتر وحيد وكأنها تلمس يديه مرة أخرى وتفتقد الأيام القديمة معه وقالت وهي تنظر إلى قبره: لم أكن أتخيل أنك مررت بكل هذه المعاناة يا وحيد سواء في خيالك أو في الواقع، إنه الألم الذي كنت تخاف منه طوال عمرك يا حبيبي.

قلت لها: كان رحيلك بمثابة نهايته يا سمية، كم كان يحبك ويعيش بذكراك.

قالت دامعة: لم أكن أتخيل يوما أن أفترق عنه، لم نضع هذا في حساباتنا حتى ولو لحظة واحدة كان يقول لي "العمر بدونك يا سمية ليس رقما يزيد بل هو عد تنازلي، العمر بدونك لحظات أنتظر نهايتها"، كان يرسل لي الكتب أيام الجامعة مليئة بالداخل بالقلوب التي رسمها بقلمه في كل صفحة، حينما أطلب منه كتابا ما أو مذكرة كان يملأها بالقلوب وأبيات الشعر قبل أن يصارحني بحبه وأصارحه بمشاعري من ناحيته أيضا، ظل لمدة عام يكتم مشاعره ويحاول إعلانها ويخجل.

في أحد الأيام كنت مريضة في منزلي ولما عرف الخبر هرع إلى منزلنا بغير صبر ودق الجرس وسألته والدتي من أنت؟

قال: أنا زميل سمية في الجامعة

سمعت صوته وقلت لها: إنه زميلي يا أمي

دخل إلى زيارتنا بحضور أمي وحينما قامت لإعداد فنجانا من الشاي له نظر إلي في ثقة وقال بكل إصرار: أحبك يا سمية، لطالما أحببتك وكأن حبك قدر من قبل ميلادي، أنتِ وجودي يا سمية، حينما عرفت بمرضك شعرت بتوعك في قلبي، فأنتِ قلبي.

قلت لسعيد: تعلم يا سعيد ألا تضيع قصة حبك أبدا فالعواقب صعبة والذكرى أصعب يا ابن أخي.

قال: أتمنى أن أملك قلبا مثل وحيد لقد تشوقت لسماع المزيد من قصته الغريبة.

قلت له: اصبر فربما تمنيت ألا تكون مكانه أبدا.. ما حدث في حياته لا يمكن أن يتخيله أحد.

قال سعيد: قل لنا المزيد يا عمي عن حياة صديقك الغامض.

أمسكت دفتر المذكرات وبدأنا في عالم الأوراق من جديد.

منذ خروجي من المستشفى وأنا ما زلت في حالة صدمة، رغم كل الثروة التي أخبرني بها محامي الأسرة ولكني ما زلت لا أشعر بأي نوع من البهجة ولا السعادة.

اتصلت به على التليفون وقلت له أن يأتي إلى منزلي لأمر هام، جاء في الموعد وقلت له: أريد منك أمرا أخيرا.

قال: أي خدمة يا أستاذ وحيد سأقوم بها لك.

قلت: أريد التخفيف، أريد التخلي.

ربما يؤمن البعض عن السعادة في التخلي، مثلي أنا، لا ترتبط بالأشياء أكثر من اللزوم ولا العقارات ولا الجمادات أكثر من الإنسان، قالوا إن صديق الكل ليس صديقا لأحد، بالطبع مقولة صادقة، صديق الكل منافق يحاول أن يرتبط بالجميع لمصلحة ما، ليس لأحد القدرة على أن يكون صديقا للجميع ربما يعرف الجميع ولكن لا يكون صديقا لهم، الصداقة عقد ومسئولية كبيرة بحجم الحب وتحتاج في شروط العقد علي الوفاء وحفظ الأسرار وتوثيق العهود.

صديق الكل يحاول فقط أن ينتشر بينهم لا أكثر أن يعود بنقاط إيجابية في نظرهم لكي يشعر بالسعادة داخله ولا يهمه مصلحتهم ولكن أن يرى في أعينهم نظرة الإعجاب له، وكذلك الحال مع الأشياء، لا أستطيع أن أكون وسط كل تلك العقارات والشركات والأراضي أريد أن أعيش بحرية وبساطة محطما تلك القيود الرهيبة على عاتقي.

طلبت من المحامي أن يبيع الأراضي وبعض العقارات ليصبح كل ما أملكه عملي في الشركة وأموالا في البنك، لا أستطيع السيطرة وحدي على كل شيء أنا لست مثل أبي، أبي كان يريد المزيد ولا يستطيع الجلوس لحظة دون أن يطمئن على أرض أو عقار أو شركة.

لا أستطيع أن أكون مثله، حياتي مختلفة والآن حياتي أصبحت أصعب وأصعب بعد الحادث.

أشعر كأنني حزن على جفن أرملة لا يأتي إلا مع الذكرى.. فلا أشعر بخلقي ووجودي إلا مع ذكرى، ومهما تكن الذكرى أكون أنا، حزينة فأحزن سعيدة فأسعد لا ذكرى لا أكون.

أشعر بأنني لوحة سريالية في إحدى المتاحف ولم يتوقف أحدهم يوما ليسأل عن معنى وجودي.. ذهبوا إلى لوحات أسهل في التفسير، حتى ذابت ألواني وصرت أعقد وأعقد فسألوا عن معنى اللوحة.

كأنني مصاب بمرض نقص المناعة ضد الحزن الدخيل، كأنني "بعد" جديد للحياة وهو "بعد الرحيل".

كأن أربعة عمالقة تدق بمطارق على أحلامي وآمالي.

كأني مطفأة سجائر العالم يطفئ فيّ مشاكله وأحزانه في قلبي وحدي ويستثني باقي العالم.

كأن حياتي مجرد منديل فيه دموع ليست دموعه وجراح ليست جراحه.

أتممت البيع لأحاول أن أجعل حياتي هادئة، باشرت أعمال والدي في شركة الاستيراد والتصدير بعد شهور من خروجي من المستشفى.

مر عامان تحديدا منذ خروجي وقابلتها، مرحلة جديدة في حياتي، ليست سمية ولكن قابلت "ساندي".

لا أعرف كيف ساقني القدر أو الجحيم إلى هذا اليوم الغريب، كنت في أحد الكافيهات في المعادي ووجدتها هناك تجلس وحدها مع هاتفها كالمعتاد ما بين البشر في هذا العصر.

الهاتف صار صديق الجميع، عالم من الزيف وإخفاء الحقائق من خلال تواصل اجتماعي مريب غير منطقي، كل يظهر على عكس حقيقته، السعيد حزين والحزين سعيد، البعض خائف من الحسد والبعض يعلن كل فرحة في حياته ويتحدى الحسد، الموضة الزرقاء القاتلة أصبحت صديقة الوحدة وفي نفس الوقت هي سبب الوحدة.

طلبت عصير ليمون بالنعناع وجلست أقرأ الصحيفة، بدأت تنظر إلي بشكل غريب وكأنها تعرفني، اقتربت من المنضدة التي أجلس عليها وسحبت كرسيا وجلست وقالت: اسمي ساندي وأنت؟

سأتوقف هنا لحظة واحدة لأفكر، هي جاءت تتعرف علي بصدرها الجميل المكشوف كقطعة الملبن والبنطلون الذي يجسم أدق تفاصيل الجزء السفلي حتى الجزء الهام كما تعلمون!! إمممم.. فكرت قليلا.. هل هي طبيعية أم هي للإيجار؟

لا أعرف ولكن دعني أقص حتى النهاية، ابتسمت لها وأنا أنظر إلى وجهها الفاتن المثير وقلت: وحيد.

سيظن البعض أني نسيت سمية ولكن في حقيقة الأمر أنا أفصل الرغبة عن الحب، سمية بالنسبة لقلبي كالدين بينما ساندي ستكون نزوتي الصغيرة.

قالت في دلال: هل تسمح لي أن أجلس معك قليلا ونتحدث؟

كانت قد جلست بالفعل ثم تسأل أن أمكنها الجلوس، عموما أنا لا أعرف ما الذي يحدث حتى الآن ولكن ربما تعرف عني شيئا، ربما هي طامعة في أموالي وتعرف من أنا، وربما هي بائعة هوى وربما ظني في غير محله وهي امرأة طبيعية ولكن فائرة بالأنوثة التي ينتصب لها.. "عقلي"!!

بعد رحيل سمية وفقدان عائلتي كنت أحتاج لأن أهرب في علاقة غريبة مثل هذه، أحتاج لمن يخرجني من حزني قليلا ولو بالزيف، تشاهدون دائما في الأفلام الرجال يخرجون من العلاقة بعلاقة أو من الحزن بعلاقة وتتساءلون عن حقيقة هذا الأمر، حسنا دعوني أقول لكم هو ليس خروجا من العلاقة ولكن محاولة جادة للهروب قليلا من وحشة الرحيل ولوعته.

مشهد البار الشهير في كل فيلم وكل رواية والبطل يسكر ويحضن امرأة كي ينسى حزن الدنيا أو رحيل حبيبته هو شيء طبيعي في شخصية الرجل فلا تتعجبوا، أشعر به تماما الآن، أحتاج إلى ساندي لألهو قليلا وأعود إلى حزني وذكرياتي مع سمية.

جلست معي وتحدثنا قليلا وتأكدت أنها لا تعرفني، حسنا هي ليست بائعة هوى سأحرق عليكم الفيلم الذي تنتظرونه، هي امرأة طبيعية تحتاج إلى أحضاني، ربما ظننتها في البداية مقلبا من أحد أصدقائي ولكن لا يبدو كذلك ولكن ما زال الخوف داخلي أن تكون مقلبا من هذا المختل الذي قابلته في شفشاون وهو رجل الخريف، لقد لمستها كي أشعر هل هي حقيقية أم لا، فربما هي وهم من أوهام رجل الخريف زرعه داخلي لسبب ما، لم أقابله من بعد الحادث طوال هذه المدة، ربما يكون قد نساني أو يحضر لي كارثة جديدة ولكن أظن أن ساندي ليس لها علاقة بكل هذا.

ذهبنا إلى شقتي و... حسنا لا تتعجب فالأمور سارت بسرعة وقلت لكم أنها فائرة الأنوثة فما المطلوب مني الآن أن أقول لها أنتِ جميلة ثم أرحل؟

دخلنا إلى الشقة وقالت وهي تخلع ملابسها: هل لديك عصير؟

لا داعي أن تفهم أنه إيحاء جنسي ولكنها تطلب عصير بالفعل، رغم أنها شربت منذ قليل على الكافيه.

كان السرير دافئا وزادت سخونته مع تقلباتنا وقبلاتنا وقفزاتنا البهلوانية وأوضاعنا الغريبة. سأقول لكم أن ساندي كانت محترفة بشكل غير مفهوم رغم أنها ليست عاهرة تتقاضى المال.

في صباح اليوم التالي أعددت لها الإفطار ولكنها كانت تتعجل الرحيل وقالت أن مشوارا هاما في انتظارها الآن. قلت لها: لا بأس أراكِ مرة أخرى.

تركت لي رقم هاتفها ثم رحلت مع وعد قريب بزيارة ساخنة أخرى مع بعض العصير!

دعوني أحكي لكم عن ساندي، كانت ذات شعر ناعم كثيف فاحم السواد وأصابع ناعمة عليها بعض رسومات الحنة المغربية وجسما ممتلئا أعلاه وأسفله بما يناسب أن يقال عليه "كيرفي" وليس سمينا.

كانت بمقياس أي أنثى تحصل على درجة 99 في المائة أنوثة وجاذبية وسأترك الواحد بالمائة فقط كي لا أشعر بالعجز أمام جمالها وفورانها.

أنا لا أعرف ما طبيعة هذه العلاقة بالضبط بالنسبة لها، أنا أفهم جيدا ما طبيعتها بالنسبة لي ولكن أخاف أن تكون لها هدف معين أو تظن أننا سنرتبط ببعض يوما ما.

مر يومان وحاولت الاتصال بالرقم دون جدوى، افتقدت ساندي قليلا ولكن بالطبع هي مجرد نزوة وليس حبا على الإطلاق، ساندي حب للجسد، ساندي لا أقارنها بأي شكل من الأشكال مع سمية، سيقول البعض إن هذا ما أقنع به نفسي وأنني خائن الآن ولكني لا أري أي خيانة هنا على الإطلاق أنا مجرد شخص يمر بأزمة ويحاول الخروج منها بالجنس وهي ليست أول مرة ولست أول رجل أفعل هذا.

طبقا لقدماء اليونان كان هناك أنواع مختلفة من الحب، وكان أول نوع يسمي "إيروس" وهو إله الحب والخصوبة عندهم.

حب الجسد ورغبة مشتعلة بين طرفين كما يسمي "حب إيروتك".

هناك أيضا نوع يسمي "فيليا" أو الحب الرقيق الخالي من رغبة جنسية أو أفلاطوني.

ونوع آخر يسمى "براجما" وهو علاقة تتطور عبر الوقت والسنين مثل حب الأزواج.

أما النوع الذي يسمى "اجابي" فهو الحب الخالي من أي مصلحة أو توقع من الطرف الآخر، أحب سمية بدون أن أنتظر أي شيء أحبها للأبد حتى موتي سواء عادت أم لم تعد هي مكتوبة في ألواحي القدرية حبيبتي.

ساندي مجرد حب إيروتيكي لرجل وحيد، ولكنها غائبة ومر أسبوع الآن ولا أعرف عنها أي شيء، حتى عادت وقالت لي إن والدتها كانت مريضة وكانت معها ولم ترد على أي اتصال لإصابتها باكتئاب حزنا على والدتها.

خرجنا معا ودخلنا إلي السينما لمحاولة إدخال السرور على قلبها، سيقول أحدكم الآن بتهكم:

"وكأنك مثلا تدخل السرور على قلب يتيم أيها الذئب"

حسنا أنا لست ذئبا، أولا أنا شرحت لكم ماذا أفعل تحديدا وثانيا أنا حقا لا أعرف ما الذي أفعله وما هي طبيعة ونهاية هذه العلاقة الغريبة المفاجئة.

خرجنا من الفيلم وظننت أن ساندي تريد الرحيل الآن لزيارة والدتها مرة أخرى ولكن الغريب أنها قالت لي: فلنذهب إلى شقتك.

ذهبنا في جولة أخرى وزاد تعلقي بها وكأنها دميتي الجنسية المفضلة الآن، ساندي لم تملك صدرا عاديا بل هو صدر أشبه بقطعة جوز هند كبيرة صعبة التقشير ولكن عصيرها مميز لو تعبت قليلا.

خرجت في الصباح مرة أخرى ووعدتني أنها سترد على تليفوني هذه المرة، ولم ترد، أي لعبة تلعبها معي يا ساندي؟؟ لماذا تفعلين هذا؟؟

زاد الجنون قليلا حينما أرسلت لي رسالة تقول: لنزيد البعد قليلا لتزيد المحبة والرغبة بيننا، أعرف أني أمثل لك رغبة تطفئها ولكنك تمثل لي حضن رجل افتقده وأتمنى أن أبقى بجواره، أتمنى أن نعيش قصة حب يوما ما.

حقا يا ساندي؟؟ هل تظنين أنني سأحبك؟ لقد وقعت شباكي في مريضة على ما أظن، مريضة بالتعلق بي وأنا غير مهتم على الإطلاق بها.

لا أعرف كيف أفسر لكم ولكن نجحت خطة ساندي لقد تعلقت بها فعلا ولكن تعلق جسدي حتى أنني ذهبت إلى نفس الكافيه الذي قابلتها فيه أول مرة وسألت عليها ولم أجدها هناك.

لم تعد هذه المرة بعد شهر حتى، ولم ترسل رسالة ولم تقل أي تفاصيل، جن جنوني، حتى المستشفي التي قالت إن والدتها موجودة بها لم تكن بها ولم توجد أمها هنا يوما ما لقد كذبت علي إنها تلعب لعبة معي.

أرسلت لي رسالة مرة أخرى تقول "كلما زاد البعد زادت اللهفة، وأريد أن يكون لقاؤنا القادم مليئا باللهفة مثلما هو مليء بالقبلات يا وحيد".

أرسلت لي رسالة غريبة على الهاتف بموقع معين على الخريطة، ذهبت هناك فلم أجد أحدا حتى جاء أحدهم وأعطاني باقة زهور

حمراء وقال إنها مدفوعة الثمن وبها بطاقة تقول "فلتهديها إلي عندما نتقابل أريد أن أشعر بحبك".

الآن الوضع أصعب وأصبح معقدا جدا ساندي فعلا تريد حبيب وأنا لست هذا الحبيب فقلبي بالفعل مع سمية.

مهما فعلت ساندي فستظل هي الجسد الجميل الذي قابلته بعد اشتياق لأنفاس امرأة على فمي، وجسدا يضم جسدي في التحام قلم وزجاجة حبر رطبة جميلة.

بعد فترة أرسلت لي رسالة أخرى بموقع آخر ووجدت فيه علبة بها خاتم صغير.. ساندي تظن أني سأتزوجها أو أو أتقدم لخطبتها حسنا لا بد لهذا العبث أن ينتهي.

احتفظت بتلك الأشياء في منزلي لعلي أصارحها بكل شيء حينما نتقابل وأني لا أحبها بالشكل الذي تفهمه.. ربما بالغت في إبداء إعجابي بتفاصيل جسدها فظنت أني لا أستطيع البعد عنها وأريد أن أعيش معها مدى الحياة.. غريبة أمور النساء في نقل الإشارات العاطفية وترجمتها.

أرسلت لي موقعا آخر على الخريطة وقالت لي بعد ثلاثة أيام نتقابل هناك سأكلمك حينها.

كنت أريد التأكد من هذا المكان فذهبت بسيارتي فوجدت أنه فندق فتعجبت وقلت لنفسي ربما تريد قضاء ليلة أخرى معي ولما لا.

أنا لا أقع أبدا في علاقات طبيعية، سمية لم تكن لي وعائلتي ذهبت إلى العالم الآخر والآن أقع في علاقة مريبة مجددا ولا أعرف ما الذي يحدث لي، لا أستطيع أن أنقذ نفسي أنا في هذا العالم خلقت لكي ينتشلني أحدهم، أحتاج إلى المساعدة وكأني وسط سفينة تغرق وأنا

أنادي على الجميع، قلبي أصبح سفينة تايتانيك تغرق في علاقات غير منطقية لأي بشري عادي وطبيعي.

كان جلال الدين الرومي يقول "كل شيء في الكون داخلك، طلب كل شيء من نفسك"

حسنا، كلها كلمات جميلة ولكن أنا فعلا احتاج للمساعدة "النجدددددة يا عالم".

أشعر بكثرة الضغوط علي، أشعر بقرب انطلاق وحش الغضب من داخلي وليرحمكم الله جميعا لو انطلق الغضب من داخلي وثار كالبركان، سأدمر كل شيء حولي كالوغد ولا أبالي لو حانت اللحظة.

رغم خروجي من المستشفى أشعر أحيانا في كل صباح بمن ينادي اسمي ويضع حقنة في كتفي الأيمن، بل أحيانا أنظر لكتفي للتأكد من وجود علامات، هل من المنطقي أن أحلم بنفس الحلم كل يوم؟؟

عندما اخترعوا الحبوب المنومة لماذا لا يكون هناك حبة تفيق الحالمين؟ حبة تفصل الواقع عن الخيال، حبة سحرية كما كنا نعرفها ونحن صغار بحبة الفاصوليا السحرية التي نذهب بها لعالم الخيال والتيه.

مرت الأيام وجاء الموعد وذهبت إلى المكان المحدد انتظرت ساعة ولا أجد أحدا حتى رن جرس الهاتف وتحدثت قائلة "ستجدني في قاعة بالأسفل أنتظرك".

نزلت إلى الأسفل في المصعد ووقف قليلا دون سبب مفهوم ثم تحرك ووجدت عددا من القاعات متجاورة وسمعت صوت غناء بالداخل.

قاعة؟ يا للعبث؟ هل سنتزوج الآن؟ هل جهزت تلك المختلة ليلة الفرح كي نتزوج مثلا؟

دخلت قاعة الفرح ووجدت ساندي بفستان فرح تتزوج بالفعل من رجل ما عملاق الجسد ربما يكفيها جنسيا.

ما الذي يحدث؟ كان معي الخاتم والزهور وأهديتها إليها وقلت "ماذا تفعلين يا ساندي؟؟ ما كل هذا وما سبب تلك اللعبة؟؟"

قالت "كسر قلبي أحدهم ذات يوم فأردت أن أشعر بكسرة قلبك في يوم مثل هذا"

لا لا لا.. هذا شيء غريب وتدبير غريب ومقابلة غريبة وكافيه غريب وهذا الأمر مدبر.. ما يحدث حولي هو الجنون بقوته وجبروته وحضوره بنفسه.

قلت لها: ولكني لا أغير يا ساندي.. أنا لم أحبك حبا حقيقيا.

قالت: ولكن ألا تشعر بأنك ستفتقدني بعد ذلك؟

حسنا سأفتقدها بالفعل ولكني سأفتقد الجنس معها فقط، ونعم شعرت بكسرة كما قالت ولكن من إحساس أني قد تم التلاعب بي بشكل غريب، لقد حاولت كسري فعلا ونجحت قليلا.

أخذت مني الخاتم والزهور وذهبت إلى الكوشة مرة أخرى وعرفتني على زوجها وقالت "وحيد صديقي في أيام الجامعة".

أيام الجامعة؟؟ حقا يا ساندي؟؟ هل تقصدين عندما تخرجتي من تحت جسدي بتقدير "ساخن جدا"؟؟

أنا لم أرك إلا من فترة قصيرة عن أي جامعة تتحدثين، ثم لماذا تعرفني على هذا الأبله أصلا الذي لا يعرف حتى أن زوجته وأم أولاده المستقبلية كانت معي في الفراش تستجديني وتحتاجني وتجتاحني؟

قال الزوج: أهلا وحيد.. سمية حكت لي عنك قليلا تشرفت بمعرفتك.

نظرت لساندي في تعجب وقلت: سمية؟؟؟ من سمية؟

قالت ساندي هامسة في أذني: اسمي الحقيقي سمية.. ولكني أحب اسم ساندي.

حتى توقف المشهد تماما بشكل غريب وكأنه فيلم وأحدهم أوقف المشهد وسمعت صوت يصيح بشكل عالي جدا، صوت أعرفه وأكرهه ويقول: ستووووووووب.. جميل جدا حتى الآن.

لقد عاد المجنون أنه رجل الخريف الذي قابلته في المغرب، ماذا يحدث أريد تفسيرا الآن لكل لحظة مرت منذ لقائي بساندي هذه إن كانت حتى حقيقية.

توقفوا جميعا كأنهم تماثيل شمع، حتى الأغاني توقفت والمعزومين في الفرح واقفين تماما عن الحركة وقال لي وهو يخرج ورقة خريف: قلت لك من قبل سأفقدك أشياء لها قيمة وأشياء ليست لها قيمة وستعود لك سمية.

تذكرت عينيه يوم أن دهس عائلتي وأمسكت سكينا من منضدة في القاعة وحاولت أن أزرعها في قلبه دون جدوى، تحرك في خفة شيطانية وهرب منها وقال: دعني أشرح لك.

قلت: لا أريد أن أسمع أيها الكلب.. كل ما أريده أن أقتلك.. أن تموت وتذهب إلى الجحيم.

ضحك وقال: الجحيم؟؟ ولما لا أكون أنا الجحيم نفسه؟ لماذا أرى حزنك الآن ألم تقل داخلك أن ساندي لا تعني لك شيئا؟ هي فعلا لم تكن شيئا.

سقطت ساندي كحفنة تراب أمامي في مشهد مفزع وكأن كل ما حولي لوحة ما رسمها هذا المرعب والآن يمسحها بيديه.

وقال مرة أخرى: أعطيتك قليلا من عصير الرغبة المفروض أن تشكرني.

قلت في غضب: لا أريد منك شيئا ولا أريدك في الحياة كلها.. كانت أتعس لحظاتي يوم أن قابلتك.

قال: وهل تعرف القادم؟

قلت: لا أريد معرفة أي شيء، لماذا تفعل كل هذا ما الذي تريد إثباته؟

فجأة وجدته وكأنه يخرج من خلف سترته كرسيا ومنضدة وآلة كاتبة في مشهد سحري غير مألوف.. كيف خرجت هذه الأشياء من خلف سترته؟؟

وكتب على آلته الكاتبة وهو يسخر مني مرددا ما قلته: ما الذي تريد إثباته؟

حاولت الهجوم عليه مرة أخرى وهرب مني كالمعتاد في مكان ما في قاعة الفرح وقال فجأة وهو يمسك ميكروفونا: أريد إنقاذك أريد أن أحقق أمنيتك التي سافرت العالم من أجلها؟

قلت ساخرا منه: وهل يحقق الشيطان الأمنيات؟

قال: وهل يفعل غير هذا؟ ومن قال إنني شيطان؟؟ الروايات أفسدت عقولكم حقا.. هل تظن نفسك في مسرحية فاوست؟ آآآآه ربما بسبب العقد.

ضحك طويلا وهو يشير إلي وسمعت صوت ضحكات أخرى وكأنها صوت ضحك الحضور كله.

قلت: ما أنت إذا؟؟ ربما تريدني بجوارك في جحيم ما.

قال وهو يضحك: وحيد.. أنت لا تؤمن بمثل هذه الأشياء دعنا نكون واضحين.. ولا جحيم ولا جنة ولا أنا حتى.. أنا بالنسبة لك ظاهرة ما لا تفهمها وتريد تفسيرا.

قلت في تلعثم: ربما.. ولكن ما الذي يغيره هذا.. وما دخل إيماني من عدمه في جنونك وعقدك ومساعدتك لي وقتلك لعائلتي؟

كتب أمامي أرقاما ثم أعاد جمعها ووجدت فجأة رقم حسابي البنكي أمامي.. أنه يعرف كل شيء.. كل شيء.

قلت له: والآن هل ستسرقني أيها اللص؟

قال: أسرقك؟ وما الذي يفعله شيطان كما تقول بأموالك؟؟ أنا الحياة نفسها.

قلت له: ما الذي تريده في نهاية كل هذا؟ قل لي الحقيقة؟

قال: الحقيقة نسبية.. الحقيقة عندي غير الحقيقة عندك وأنت تعلم هذا جيدا.

ثم أخرج قلما ورسم عددا من الشخصيات الغريبة أمامي ومحاها كأنها تراب مرة أخرى.

ثم همس بجوار أذني: هل أنت خائف الآن؟؟ ربما تخاف أن تكون سمية نفسها مجرد وهم زرعته داخلك؟؟ أنت لا تفهم الآن لا حقيقة من الخيال؟؟ شخصيات تأتي وتذهب؟؟ ما رأيك في الحياة؟

قلت في حسرة: كابوس

قال : أعرف أنك من أنصار المذهب التشاؤمي.

قلت: لهذا اخترتني مثلا؟ هل تريد أن تخرجني من التشاؤم للتفاؤل.. لقد زاد حزني وألمي بسبب وجودك في حياتي أيها المختل.

قال: حسنا كما أقول للجميع.. استمتع بقصة حياة بوكوفسكي واستمتع بكلمة "لا تحاول".

قلت مستهزئا منه: هل صرت أديبا الآن؟

حسنا الآن، قد اختفي بشكل مفاجئ وعاد الفرح مرة أخرى وتحركت المعازيم.. فزعت من المشهد وركضت إلى الخارج.. هل ساندي حقيقة أم خيال هل أنا نفسي حقيقة أم مجرد حلم في عقل أحدهم؟

خرجت بسرعة ووجدت نفسي أمام "الريسيبشن" في الفندق وقد ظهر تعرقي وفزعي للعامل فسألني: ما الأمر يا سيدي؟

قلت له: أرجوك.. ما اسم من حجز القاعة بالأسفل؟

قال لي متعجبا: أي قاعة؟

قلت: قاعة الفرح.. العروسة اسمها ساندي أو سمية.. المهم ابحث لي اسم من حجز القاعة التي بها الفرح الآن؟

قال وهو يكمل عمله: آه حسنا.. ربما اختلط عليك الأمر سيدي حقا.. ربما تقصد فندقا آخر.

أمسكته من عنقه مهددا وصرخت: هل أنت معهم أيها النجس؟؟ من أنت؟؟ لماذا تنكر كل شيء ولا تريد الإجابة.

تدخل الأمن فجأة من حولي وأخرجوني ولكن في طريقي للخارج قال العامل: حسنا يا سيدي أقدر حالتك العصبية ولا أعرف ما مررت به ولكن القاعات مغلقة بالأسفل منذ 15 سنة ولا نقيم أفراحا!!

"السر الخفي"

أشعر بالنبض في قلبي الميت مازال هناك شيء يدعوني للحياة، على الأقل للبحث خلف هذا الكابوس وسر هذا الشيء غريب المسمى "رجل الخريف" وهل هو شيطان؟

أبحث بشغف للوصول إلى الحقيقة هل أنا وقعت عقدا مع شيطان؟ وهل التوقيع بالإكراه؟

نعم ستقولون إنه شخص خارج من مصحة فطبيعي أن نرى العجب ولكن ما حدث لي وأول ظهور لرجل الخريف كان قبل دخولي للعلاج كان قبل الحادث أيضا.. أنا فقط تذكرته وتذكرت تفاصيله بالتدريج.

بعض من يؤمنون بالغيبيات والشيطان وهذه الأمور يقولون نعم العقد مع الشيطان حقيقي، وجدت أن ساحرة كبيرة في عام 1619 قد أظهرت عقد تزعم أنها أبرمته مع الشيطان على جلد قط وحكم عليها بالإعدام.

وساحر آخر كان يسمي أوبان شواندي قد وقع نفس العقد، ولكن الشيطان يأتي لهم بعد أن يطلبوه وأن يتموا مراسم معينة بدماء الحيوانات وأنا لم أطلبه، لقد خدعني واستعمل المكر والخداع ليجعلني أوقع على ورقة لا اعرف محتواها حتى واحتفظ بالنسخة لنفسه، ثم أن الشيطان لا يقول عن نفسه "رجل الخريف"!!

قالوا أيضا في المعلومات التي بحثت عنها أن عازف الفيولين والكمان "باغانيني" وقع عقدا مماثلا وهو السر في موهبته الفذة غير المألوفة في عصره.

وكذلك الحال في قصة "يوفيلوس أضنة" وهو كما قالوا، رجل دين في كنيسة من القرن السادس، أبرم صفقة مع الشيطان للحصول على ترقي كنسي!

والكاتب القديم "كورنيليوس أجريبا" في القرن الخامس عشر الذي كان من الكتاب المشهورين وكيميائي أيضا وله كتب في السحر وكانت الشائعات حوله أنه قد قام بتوقيع عقد مع الشيطان.

الكثير من الشخصيات الأخرى قالوا عنهم أنهم وقعوا عقودا مماثلة ربما لموهبة فذة أو ظاهرة غريبة حدثت والبعض ينكر بالطبع هذه الفكرة والبعض يصدقها بل يقولون إنها حقيقية تماما والعقود موجودة حتى الآن وأن استحضار الشيطان له مراسم وطقوس خاصة جدا ومرعبة.

وأيضا البعض اتهم الساحر ديفيد كوبر فيلد بأنه من الموقعين على مثل هذه العقود.

أما أنا فأبحث عن كل هذا ولا أصدق حرفا منه، لولا ما حدث ما بحثت عن مثل هذه الخرافات أبدا أنا فقط أحاول الوصول لماهية هذا الرجل الذي ظهر لي، ربما كان ساحرا مجنونا يحاول التحكم في حياتي أو ربما يبتزني للحصول على مال مني لا أعرف.

حالتي النفسية تسوء، أظن أني احتاج لأن أصارح صديقي سليم بما يحدث لي، احتاج لأحد يسمعني الآن بعد أن تخلى عني معظم أقربائي خصوصا مع بيع الأملاك التي كانوا يطمعون في التقرب مني بسببها للحصول على وظيفة في إحدى الشركات ولكن بعد أن تضاءل كل شيء لم أسمع منهم شيئا، بعد أن أصبح المال ملكي في البنك وليست مجموعة عقارات وشركات يطمعون فيها غضبوا ولم يسألوا عني كالعادة، كم أقدر المعاناة التي من خلالها أعرف حقيقة البشر.

ذهبت إلى سليم وقلت له قصة ساندي وقصة رجل الخريف وقال لي في حزن: مرة أخرى يا وحيد، أنت تحتاج إلى الطبيب، حالتك تعاود الانتكاس.

حينما أسمع كلمة انتكاسة أعرف أنه يراني كأني مخبول، هو صديقي ويصدق كل شيء مني طوال عمره، ولكن شيطان وعقد فهذا كثير وفوق طاقته ولا يصدقه شخص عادي.

قلت له: لا أعرف يا سليم، حينما خرجت من الفندق كان الرجل ينظر لي بحسرة كان يظن أني مخمور أتحدث عن فرح تم في قاعة غير موجودة أصلا.

قال لي: ربما الطبيب النفسي هو الحل الأمثل الآن يا صديقي ربما تحتاج إلى جرعة علاج أخرى.

قلت له في حزن: لا أدري يا سليم، لا أعرف ماذا ألم بي، لقد رأيته كأنه حقيقي، كأنه أمامي، ليس كابوسا لقد ظهر لي فعلا، أعرف أنه ربما ليس شيطانا ولكن على الأقل ربما كان ساحرا أو دجالا.

قال لي وهو يربت على كتفي بهدوء: اطمئن يا صديقي لن أتركك، أنت تحتاج إلى التركيز في عملك أكثر، حالة الشركة تسوء يا وحيد، السكرتيرة الخاصة بك كلمتني وقالت إنك لا تذهب معظم الأيام والحالة أصبحت صعبة والعمل ليس على خير ما يرام يا صديقي.

قلت: ليس العمل فقط بل أنا أيضا، منذ الحادث ومنذ أن خرجت من المستشفى وأنا لا أعرف نفسي يا سليم، لم أعد أنا وحيد الذي طالما عرفته.

هل كان رجل الخريف شبحا أم شيطانا؟ أظن أن الأشباح توجد في ثلاثة عقول كاتب يكتب عنهم، وطفل يلعب معهم، وعاشق يعيش معهم حياته.

كأن الجدار المائي الذي يفصلني عن أحزاني قد تلاشى، أصبحت أنا والحزن توأما ملتصقا وأنا والكوابيس أخوة في الرضاعة من نفس الهلع.

من سأفقد بعد ذلك لا أعرف، منذ أن قابلته فقدت عائلتي ثم فقدت ساندي التي كانت تمثل رغبة ليس إلا.

من سيفقدني في المرة القادمة هذا الوحش الكامن في زي رجل متحضر؟ لقد كرهت المدينة الزرقاء في المغرب وكرهت السفر.

قال لي سليم: الآن نام قليلا وغدا سنذهب للطبيب ليسمعك وأنا سأقف جانبك دائما يا وحيد.

لا أعرف يا سليم هل وقوفك بجانبي سيفيدنا أم يضرك؟؟ أخاف أن يصيبك الأذى مني يوما ما بسبب رجل الخريف وأخاف على كل من يقترب مني.

"بورتريه"

أتذكر جملة بول أوستر "بورتريه لرجل غير مرئي"، أشعر في هذه الأيام أني غير مرئي تماما، الكل يراني على عكس ما أنا عليه، الكل لا يصدقني ولا تصدقني إلا نفسي التي أشعر معها فقط بالاطمئنان.

البعض يقول إن الوحدة أشد من القتل، ربما لا يعرفون أن الوحدة أخرجت أفضل وأجمل ما في داخل كُتاب عالميين ومنهم من كان إبداعه من داخل السجون وحيدا مقهورا.

كان محمود درويش يقول "إن الوحدة مؤلمة ولكنها أجمل بكثير من الذين يتذكرونك فقط وقت فراغهم"، وقال جبران "الوحدة أفضل من أن تعيش عكس نفسك لإرضاء غيرك".

سعادتي في وحدتي، مع قلمي ومذكراتي، لم أفضل شيئا عن الوحدة غير الحب، سمية هي الوحيدة التي تعد بالنسبة لي أفضل من الوحدة، كانت الناس جميعا، سمية كانت وطنا وحضارة جمالا وهوى.

في الهند القديمة كانت نشوة الحب تسمي "أناندا"، كما وصفتها الفيدا الهندية أي وعي النعيم الأبدي، الحب هو نعيمي الأبدي وأنا الآن بدون أن أشعر به أعيش في جحيمي الخاص حتى أظن أن الشيطان بنفسه يتجسد لي!

ذهبت مع سليم إلى الطبيب مرة أخرى بعد أن قلق على حالتي وطلب مني أن أرافقه للاطمئنان من الطبيب مع أخذ بعض النصائح بخصوص العلاج الذي أسير عليه منذ فترة خروجي من المستشفى، أحيانا أشعر بأن العلاج هو السبب فيما يحدث لي، كما قلت لكم كثرة القراءة ومشاهدة الأفلام قد علمتني أن أخاف من المصحات والمستشفيات والعلاج الذي يقدمونه، ربما يكون هذا عكس الحقيقة ولكني أخاف من مهنة طبيب نفسي ومستشفى للصحة النفسية.

وصلنا إلى المستشفى وكان موعد الحجز قد حان والآن قد سمعت اسمي للعرض على الطبيب، هذه المرة للاستشارة فقط دون أن يتم حجزي في الداخل مع أني أخاف أن أقول الحقيقة كاملة فيتم حجزي

في الداخل فمن يكون مناسبا أكثر للعنبر من شخص قد حدث الشيطان؟؟ أظن أني الشخص المناسب لمستشفى أمراض نفسية!

رحب بي الطبيب وهو يراقبني عن كثب ويعرف كل شيء من متابعة الحالة مع صديقي سليم وقال لي: كيف حالك يا وحيد؟ كيف تشعر؟

قلت له: لا أعرف هل أقول الحقيقة كاملة أم أداري بعضها، أشعر أنكم تتأهبون لاقتناص معلومة مني تؤهلني لأن أجلس معكم أسابيع أخرى.

ضحك وهو يقول: بالطبع لا يا وحيد نحن لسنا أعداءك، كل ما نتمناه هو خروجك سالما متعافيا، ولكن أتقصد بالحقيقة الناقصة مثلما فعلت مع اللجنة قبل خروجك؟

كان لئيما في ردوده يعرف جيدا إني عند عرضي على اللجنة قد كذبت لكي أخرج فقط، قلت حينها ما لا أشعره بالضبط، أخفيت قصة رجل الخريف ولكنهم كانوا يعرفون أني ما زلت أراه وأكذب عليهم، آه من هؤلاء النفسيين إنهم كالذئاب الجاهزة لافتراس الضحية.

قال لي بعدها بهمس في أذني وكأني لا أسمعه مثلا: هل مازلت تراه؟

قلت له في إصرار: نعم، سأقول الحقيقة، رأيته دوما ومازلت أراه وكان هناك عقدا بيني وبينه أيضا.

قال في تعجب وحيرة: عقد؟ هل معك صورة منه؟

قلت: لا، لقد حصل على توقيعي عنوة.

قال: وكيف فعل؟ ألم تكن في وعيك حينها؟ هل كنت نائما مثلا أو تشعر بخمول أو خدر في وجهك؟

كلامه يوحي بأنه لا يصدقني وأني وقعت العقد وأنا نائم، يظن أنها مجموعة من الكوابيس تلاحقني واحد تلو الآخر ولكني أعرف أنها الحقيقة.

قلت: لا لم أكن نائما ولكنه استخدم الحيلة في المطار وتنكر في زي ضابط أمن من أجل الحصول على توقيعي.

قال: وكيف كان شكله؟

قلت: شكله رجل طبيعي مثلنا ولكنه يفعل أمورا لا يفعلها بشر، أظنه شيطانا.

قال وهو يحك ذقنه في أسى من فقد الأمل في حالتي: حسنا، رجل الخريف هو الشيطان؟ ولكن هل تأكدت؟ ثم ما قصة الفندق والفرح الذي لم يوجد أصلا؟

قلت في تنهيدة شقاء: لا أعرف صدقني، لم أفهم من هذه الفتاة وما فعلته بي لقد دفعتني إلى فرحها دفعا ثم لم أجد له أثرا أصلا، أظن الكون يتآمر علي، أظن أن هناك مؤامرة كبرى تحاك لي.

كان يكتب كل كلمة أقولها، بل أكاد أجزم أنه وضع ألف خط تحت جملة "مؤامرة كبرى تحاك لي"، رغم أنه يستعمل التسجيل الصوتي إلا أنه كان يكتب أيضا في نفس الوقت بعض الجمل التي تستوقفه ولا أعرف لماذا وما مدلولها بالنسبة له ولكن من خلال قراءتي سابقا في علم النفس فأظن أن هذه الجملة مهمة وحاسمة بالنسبة له "أن هناك مؤامرة كبرى تحاك لي".

قال لي: ولكني أعرف من صديقك أن معتقداتك الدينية ليست قوية وأنك في حيرة من كل شيء، فكيف تصدق وجود الشيطان أصلا؟

قلت: لا أعرف ما زلت أبحث عن الحقيقة، لماذا عرض على خدماته لماذا يلهو بحياتي، ثم أني لم أقم بأي طقوس لاستدعائه.

قال: طقوس؟ هل بحثت عن هذا أيضا؟

قلت: نعم قرأت أن هناك طقوسا يقوم بها من يطلب الاستعانة بقوة الشيطان لتحقيق حلم ما وبمقابل ما مكتوب في العقد ولكن أنا لم أقرأ عقدي حتى ولا أعرف ماذا يريد مني.

قال: أنت واسع الاطلاع إذا، ولكن أنصحك ألا تقرأ في مثل هذه الأمور فقد تصيبك بسوء بالغ.

كان سليم في الخارج ينتظر أن تنتهي الجلسة ويصحبني إلى المنزل بعدها، وبعد أن خرجت من عند الطبيب ذهبت معه إلى منزلي ووجدت خاتما صغيرا كانت ساندي قد خلعته في منزلي وقلت له: أرأيت؟؟ هل تصدقني الآن أنه خاتم ساندي لماذا لا تصدقون إنها كانت موجودة معي؟

قال لي: حسنا اهدأ أصدقك ولكن لا تثير أعصابك.

قلت له في حزن: هل عرفت عني يوما ما أني مجنون يا سليم؟

قال: أنت تعلم يا وحيد أنك لست مجنونا وتعلم أن الحالة النفسية ليست جنونا إنك فقط متأثر بكل ما حدث لك ما بعد رحيل عائلتك وزواج سمية.

أكتب كل يوم مذكراتي أكتب الأحداث والتفاصيل التي أعيشها التي لم أعيشها أحيانا أشعر أنني داخل جدران المستشفى باستمرار وأحيانا أتمنى لو كان كل ما يحدث خيالا والعلاج سيمحيه من حياتي ولكن بلا

جدوى، كم تناولت من العقاقير النفسية والفيتامينات والحديد بلا جدوى مازلت الحالة كما هي ومازال ما أراه كما هو ولا أمل.

خرجت مع سليم إلى منزله وكانت لبنى تعد لنا وجبة الغداء كالعادة فقد قامت معي بواجب كبير جدا في الفترة الماضية وتمت دعوتي للجلوس معهم وتناول الغداء معهم عشرات المرات.

نصحني سليم مرة أخرى بالاهتمام بالعمل والعودة لمتابعته قبل أن تسوء حالة الشركة أكثر ووعدته بأن أعمل جاهدا على هذا الفترة القادمة والعودة إلى الشركة بقوة لعل العمل يخرجني مما لم يخرجني منه العلاج.

ذهبت إلى الشركة في اجتماع عاجل وجمعت المحاسبين والمستشارين القانونيين وناقشنا كل المشاكل التي أحاطت بنا الفترة الماضية بسبب إهمالي والعيش في مستنقع رجل الخريف والمستشفيات.

بدأت أواظب لمدة 6 شهور وأنا في حالة شبه مستقرة حتى حدث في يوم ما أن قابلت سائقي الخاص بعد انتهاء ساعات العمل وهو يلبس القبعة على رأسه وقال لي: إلى المنزل؟

قلت له: نعم إلى المنزل.

نظر لي في مقعدي الخلفي وهو يبتسم قائلا: هل تريد أن تتحدث قليلا؟

كان هو، لقد عاد مرة أخرى ولا أعرف ماذا يريد، كان رجل الخريف الشيطاني وليس سائق الشركة، هل سيدخل معي المنزل أيضا؟؟ هل منزلي أيضا وهم وخيال؟؟ يا للعنة أي حظ هذا!!

تحمّلتُ كلّ أشكال الموت، أريد تحمُلها من جديد، أريد موتا، كموت الغصون في الشجر.

كالأحجار في الجبل كالخزف يعود رملا، كالعشبة الصيفية الجافة إذ تطقطق موتاً بائساً، دامياً كما يموت البشر. أريد أن أولد ثانية، زهرة، شجرة، عشبة، سمكة، عصفورا أو فراشة.

"هيرمان هيسه"

"هجرتي إلى سمية"

عشت دوما محتفظا بصورتها، سمية كانت تخرجني من كل حزن يمارس طقوسه المريضة ويحرقني إرضاء للزمن وللحياة.

تذكرت أول لقاء لنا في الجامعة كنت أمر على كلية آداب بالصدفة ورأيتها من بعيد، اندهشت فاقتربت فأعجبت فعشقت فأصبحت مجنونا بها.

دعوني أحدثكم قليلا عن سمية، هي مثل الفجر، مثل الليل، أشياء تتكرر لكن لا أعرفها ولا أفهمها، هل يصل الحب في صدر العاشق إلى هذا الحد؟ أن تسبح في خلايا دمك، أن تتشبع بامرأة لدرجة أن تجهل ملامحها؟

أن تصبح حدثا عاديا لا تتخيل حياتك قبله، نبضا في وريدك لا تعرف عدده ولا تهتم، نفسا في صدرك لا تحصيه ولا تهتم، تصبح حدثا عاديا مثل الغد ومثل الأمس.

أتعاطي في ليلي حبوب النوم لأنها تتمايل في رأسي، فأراها البطلة في كل أفلام السهرة، لم أتمنى القدر الحزين يوما ما، كنت أخاف أن أصبح مثل الأزهار خلقت كي تقطف، أو مثل الأشجار مطبوع على صدري كلمة "للذكرى" ولكني تمنيت القدر الأبيض أن أصبح هي، أن أكون كل شيء مثل سمية.

يوم أن تزوجت أرسلت لها رسالة أخيرة بكلمة "مبروك" لم أستطع أن أقول كلمة أخرى، لم أتمالك نفسي من النحيب كنت أعرف أنها لن تكن لي بعد أن قابلت والدها وأمها بعد التخرج، سمية لم تكلمهم عني قبل هذا اللقاء، كانت مثل معظم الأسر تخجل أن تصارحهم بقصة حبها ولكن حينما دخلت بيتهم كعريس مستقبلي لبنتهم رحبوا بي وقابلوني، ولكن كل شيء تغير في لحظة حينما ذكرت اسم أبي وشركته التي سأعمل بها، اختفت الابتسامة من وجه والدها ورفض حتى إكمال اللقاء معي، ما ذنبي أنا؟ هل خلقت لأتحمل ذنب العمل السياسي ومصالح أبي مع الحزب الحاكم؟ حدث كل هذا في عام 2002

بعد التخرج تم رفضي، كان أبي من كوادر الحزب وكان والدها معارضا شرسا ضد الفساد ولا يختلط الزيت بالماء حتى في قصص الحب.

بعدها رفض أبوها أن تقابلني في أي مكان ولا حتى أن أحدثها تليفونيا قال أن الموضوع محسوم بل دبروا لها زيجة بعد عامين تحديدا من ابن عمها لكي تنساني ولكن هل تنساني سمية بعد قصة حبنا؟

سافرت في رحلة الأمنيات ومحاولة عودة سمية في عام 2005 بعد زواجها بعام واحد وقابلت في هذه الرحلة الطويلة رجل الخريف، ثم فقدت عائلتي بعدها.

كان رجل الخريف يظهر لي بشكل عشوائي، لم يكن يظهر مثلا كل فترة معينة أستطيع أن أحسبها ولكن كان دائما ما يظهر حينما أتوقع أن يكون الأمر انتهى أو أنه مجرد خيال في عقلي، كنت أتمنى أن يكون مجرد خيال لأنه كواقع شيء مرعب ومخيف.

كان لقاؤنا الأخير في السيارة أمام الشركة حينما رأيته ينتحل صفة السائق فتحت الباب بسرعة وخرجت ثم عدت للسيارة لأجد السائق المعتاد أمامي، هل كان خيالا؟ لماذا يحدث لي هذا؟ لماذا حتى يعرض مساعدته؟

بعدها بعام قررت أن أستريح، قررت أن أكمل مشوار رحلاتي حول العالم التي توقفت عنها بعد الحادث، ربما ينسيني السفر كهوايتي المفضلة بعض مآسي وآلام حياتي، قررت أن تكون الوجهة آسيوية هذه المرة، سافرت من قبل إلى الصين وماليزيا واليوم قررت أن أزور تايلند لعلها تنسيني بعض همومي التي طبعت على قلبي كختم حكومي بنسر لا يطير.

"من نافذة الطائرة"

قلت لسليم تفاصيل كل شيء وأني سأسافر لمدة شهر كامل في رحلة آسيوية وقابلني في مكتبي وقال لي: أتمنى أن تعود بالسلامة يا صديقي وأن تستمتع في رحلتك، هكذا عدت يا وحيد كما أعرفك عاشق

السفر، سافر يا وحيد ولتستمتع بالحياة ولا تترك نفسك فريسة لأحزانك.

قلت له: سأحاول يا سليم ربما أحاول أن أعالج نفسي ببعض السفريات.

قال لي مؤكدا: ولكن لا تنسى العلاج يا وحيد، أكد الطبيب على ضرورة أخذه في مواعيده.

قلت له: لا تقلق أخذت معي كل العلاج وسأحافظ عليه.

كنت أراجع كل مواعيد العمل لمدة شهر سأغيبه وتركت لهم كل التفاصيل والخطة الكاملة وإذا حدث أي طارئ سيتصلون بي تليفونيا، اجتمعت بأمهر الموظفين لمراجعة كل ما يخص الصفقة الأخيرة للمواد الغذائية قبل سفري.

كنت مع سليم في مطار القاهرة نشرب فنجان قهوة أخير قبل الصعود للطائرة ثم ودعته بعناق حار ثم ذهبت إلى الشباك الخاص بختم الأوراق وانتظرت في الصالة المحددة وصعدت بعدها إلى الطائرة.

جلست في مقعد بجوار شباك الطائرة، كنت أحب هذا المكان كلما سافرت كنت أحب النظر إلى السماء مثلما كنت طفلا كثير الترحال أيضا مع عائلتي، كنا في يوم ما على طائرة متجهة إلى الإمارات وسألت أمي وأنا صغير: هل الله موجود خلف تلك السحب يا أمي.

كانت أمي دوما تحكي لي هذه القصة وتضحك وتقول إني أحرجتها وسط المسافرين وكان السؤال غريب ومفاجئ.

وكنت أكرره على مسامعها كلما سافرنا وأنا طفل، كلما صعدت إلى الطائرة كنت أفكر في وجود الله، ربما يظن البعض إني حينما كبرت فهمت العالم وفهمت قصة وجود الخالق، ولكن للأسف لم يحدث،

حسنا لا تنصبوا لي المشانق ولكني ضعيف الإيمان بالغيبيات مع احترامي لكل الأديان ومعتنقيها فطالما فصلت بين عدم الإيمان بشيء وإهانة مقدسات شخص ما ولا أعرف لماذا يطعن البعض ويسب بعض الأديان لمجرد أنه غير معتقد فيها؟ أراه نوعا من الغباء والتكبر في نفس الوقت.

كانت أمي تقول لي دوما "الله موجود يا وحيد، الله في كل مكان حولنا ولكن حاول أن تتقرب منه وأدعوه من قلبك".

لقد دعوت يا أمي ليلا ونهارا سرا وجهرا بلا فائدة، ما زلت لا أعرف لماذا لا يستجيب لي؟ هل هي مشكلتي أم أنه غير موجود؟

بعد أن جلست في الطائرة نمت قليلا في هذه الرحلة الطويلة لمدة 14 ساعة ولكني كنت معتادا على هذه المسافات من سفريات الصين، من حسنات أبي كان سفرنا المعتاد منذ نعومة أظفاري، ربما حرمت بسببه من سمية ولكنه لم يكن يحرمني من أي شيء آخر منذ صغري.

كان في الكرسي المواجه لي شخص مخمور على ما أظن حدثت بسببه مشادة مع زوج امرأة تحرش بها المخمور وتدخلت المضيفات وهدأ الجو بعدها.

نظرت مرة أخرى من شباك الطائرة ونحن نقترب إلى تايلند، بالتحديد جزيرة بوكيت وهي تعد واحدة من أجمل جزر العالم وتتميز برحلات بحرية مميزة وكانت وجهة السائحين من شتى بقاع الأرض.

الملامح الآسيوية الجميلة التي تعودت عليها، في صالة مطار بوكيت الضيقة جدا وصلنا أخيرا، كنت اعتاد في رحلاتي على تجربة بعض الأكلات الغريبة في هذه البلاد، هم لهم كعادة كل دولة أكلات خاصة بهم ربما يجدها البعض عجيبة أو مقززة أحيانا ولكنهم يستمتعون بها فمثلا الصين بها سوق ليلي يبيع بعض المسليات مثل اللب عندنا ولكن

المسليات الخاصة بهم بعض الحشرات التي تستطيع قزقزتها ليلا وأنت تشاهد فيلمك المفضل، ربما تكون الآن تشعر بالغثيان ولكنها الحقيقة والبعض منهم أيضا يتفاخر بأكله للحم الكلاب الشهي اللذيذ. في قارة آسيا عموما ومطبخها ستجد العجب وستجد أيضا أخطبوطا صغيرا يتحرك في الطبق ويؤكل حيا ولا ضرر عندهم من هذا.

ذهبت إلى الفندق الذي حجزت فيه عن طريق سائق مسلم اسمه عمران كما قال لي ودار بيننا حوار بلغة إنجليزية ركيكة تتخللها بعض العربية في عربة التاكسي وقال لي: من أين أتيت؟

قلت له: من مصر هل تعرفها؟

قال: نعم أهلا بك يأتي إلينا الملايين من دول عربية أنا أعرف مصر جيدا، هل جئت وحدك أم مع الأسرة؟

قلت له بنبرة مرتعشة حينما ذكرني بأسرتي: بل أتيت وحدي يا عمران.

وكأنه رأى في فرصة ما وسألني فجأة عن حياتي الشخصية وشعرت أني في تحقيق رسمي ولكن لا بأس بإجابة أسئلة لا تضر ولا تنفع وقال: وهل أنت متزوج؟ لا أجد خاتما في إصبعك.

لم أفهم لماذا يسأل هذه الأسئلة ولكن من لطائف هذه البلد أني عرفت أن بعض سائقي التاكسي بمثابة "الخاطبة" في عرف بلادنا، قال لي إن هناك كثيرا هنا من المسلمات وأنه يريد تزويجهم ومن أحلام بعضهن الزواج بشخص عربي والخروج معه إلى دولته والعيش معه بدلا من الجزيرة وحياتها.

والبعض يجهز كل هذه الأمور عن طريق الإنترنت من خلال مواقع المواعدة أو الزواج بجنسيات أخرى ويرتبوا كل شيء حتى يأتي ويأخذها

بل الأغرب من هذا أن البعض من الدول العربية يتزوجها بالفعل ثم يتركها مع أهلها في تايلند ويأتي فقط كل عام مرة لزيارتها وكأنها فسحة صيفية بالنسبة له خارج حدود الوطن العربي المنغلق كثيرا فيما يخص الأمور الجنسية بالنسبة لدولة مثل تايلند أو الصين وغيرها من الدول الآسيوية.

قلت لعمران أني لست متزوجا وليست لي نية حاليا في مثل هذا الأمر، ودعني وأعطاني رقم تليفونه لو احتجت إلى الذهاب إلى أي مكان وقال لي بإصرار: أي مكان تفكر فيه سيدي مهما يكن.

ثم ابتسم لي وغمز بعينيه كي أفهم ما يعنيه تحديدا بأي مكان وفهمت قصده.

ذهبت إلى غرفتي في فندق مطل على البحر على شاطئ "باتونج" أتأمل في الطبيعة الخلابة لهذه البلد، ثم نمت بعدها مثل القتيل لعدة ساعات من تعب السفر الطويل واستيقظت في اليوم التالي أحاول أن أخطط لهذه الرحلة.

كثيرا من المطاعم العربية بل و حتى الأكل المصري موجود هنا لن أجرب اليوم طعاما آسيويا بل سأكل طعاما عربيا عاديا.

في هذه البلد شارع معروف للسياح يسمي "بانجلا روود" وهو معروف بخدمات الدفع مقابل الجنس، العملة ضعيفة في تايلند مقابل العملات الأخرى ومعظم العاملات في هذا المجال وحتى المطاعم والأماكن الأخرى فقيرات جدا بالنسبة لمواطن عربي عادي.

من الغريب أني لم أتي هنا تحديدا إلا للاستمتاع بالطبيعة ومعرفة بعض الأشياء عن البوذية، ما زلت في رحلة بحث عن الحقيقة منذ صغري، بعض المتعة لن تضر أيضا حتى يأتي موعد الذهاب إلى الأماكن البوذية.

حضرت عرض ملاكمة تتميز به البلد هنا وينادى عليه دائما بالميكروفونات للإعلان عن بطولات ملاكمة محلية ثم ذهبت إلى الفندق أتحدث في الهاتف واطمئن على أمور العمل والشركة من خلال الموظفين.

لم أجد ما أفعله أول يوم غير المشي على الشاطئ وشارع بانجلا الذي تتراقص فيه الفتيات بشكل مغري في وسط الشارع بل تتصارعن على السائحين وتحاول أن تحصل على غنيمتها الليلية.

في صباح اليوم الثاني ذهبت إلى أحد أماكن المساج للاسترخاء قليلا وجدت الفتيات متراصة على الجانبين لكي تختار منهن واحدة تقوم لك بتدليك ظهرك بالطريقة التايلندية وأمور أخرى إذا أحببت فلا مانع هنا لأي شيء تريده.

كان المكان مطلا بنافذة زجاجية على الخارج أمام كافيه يقدم المشروبات والأطعمة الخفيفة، وأثناء تدليك ظهري بعنف كنت أرى في الخارج زهرة آسيوية لم أعرف نوعها بعد، كانت كالحلم أو أشد روعة كانت كوقع الحب الثاني الذي أنكره وأنكر وجوده إكراما لسمية وذكرى حبنا.

رأيتها في الخارج تتناول من ثمرة جوز الهند في مشهد أشبه ما يكون كلوحة ستعلق في جاليري قلبي وتغير كل شيء للأبد، كان اسمها "بيير" وإن شئت قل "بي"!!

حسنا، في بداية الأمر أنا لا أؤمن بالحب الثاني ولم أخن سمية ولن أخونها ولكن مازلت أيضا لا أعرف تحديدا ماذا ألم بقلبي المسكين في هذه اللحظة!

ارتديت ملابسي بسرعة مقاطعا جلسة المساج ودفعت للفتاة حسابها بعملة "البات" التايلندية وخرجت علي هذا الكافيه ثم توقفت قليلا كأني أتدرب قبل مقابلة مهمة فأنا لا أدري ماذا سأقول لها؟ وأخشى أن تكون تتحدث التايلندية فقط وأنا لا أجيدها فأنا لا أعرف سوى كلمتين "مرحبا" و"وداعا" ربما احتاج على تدريب في اللغة التايلندية لمدة عشرين عاما على الأقل فهي بالنسبة لي مع اللغات الآسيوية عموما شبه مستحيلة فهي ليست حروفا عادية بل أشبه بالرسم كل حرف له رسمة معينة.

أنتظرت خروجها بعد أن تناولت ثمرة جوز الهند ثم جاءت الفكرة أن أسألها عن مكان ما لا أعرفه فربما تجيب وقلت لها بالإنجليزية: معذرة أين يقع هذا المكان وسألتها عن مكان لعروض الدولفين كانت معي ورقته التي توزع في الشوارع.

أبتسمت لي في رحلة سحر آسيوي ذهابا وعودة في لمح البصر وكانت تعرف الإنجليزية بل والعربية أيضا ولكن قليلا، البعض يعرف اللغة العربية من تعاملاته مع دول الخليج ولكن الغالبية تعرف التايلندية فقط وقليلا جدا من الإنجليزية.

سألتني عن زيارتي وعرضت عليها أن نجلس مرة أخرى على الكافيه لتبادل الحديث ولم تكن ممانعة وكان لديها الوقت الكافي، استفاض بنا الحديث وحدثتها عن سفري وأمور حياتي في مصر وحدثتني أنها تعمل مترجمة في أحد المكاتب هنا وأن أسرتها تعيش في مكان في الشمال يسمى "شيابوم". كانت جميلة حد الجنون وكنت أخاف على

قلبي من أنه مقبل على تجربة جديدة لم يكن يتوقعها، لقد جئت إلى هنا لمحاولة الهروب من الماضي فتذكرت الماضي، تذكرت أول مرة أقع فيها في الحب على يد سمية والآن أخاف أن أقع فيه مرة ثانية، أحيانا نخاف أن نقع في حب جديد، نخاف من التجربة وكان الحب الأول عقيدة نخاف على أن تتزعزع داخلنا، أنه تحد للزمن، الحب الثاني يتحدى زمنا طويلا عشنا فيه مع الحب الأول وذكراه.

عرضت عليها أن تأتي معي إلى عرض الدولفين وكنت أتوقع الرفض ولكن من الواضح أن الإعجاب السريع كان متبادلا بيننا ووافقت.

ركبنا دراجة بخارية كنت قد أجرتها من أحد المكاتب وذهبنا إلى العنوان المحدد للعرض المائي، كانت سعيدة مثلي، كنت أشعر أننا في موعد غرامي مع امرأة آسيوية لا أعرفها وما زالت هي تجهل عني الكثير، كيف أحدثها عن المآسي في حياتي ورحيل عائلتي بالكامل وفقدي لحبي وكيف حتى أحدثها عن العقاقير والمستشفى ورجل الخريف الذي يظهر لي، ربما ستظن أني مجنون وبائس ولكن دعوني استمتع باللحظة التي أعيش فيها الآن بين جنة الورود في الغمازات الآسيوية الهادئة.

ربما أكون قد رحلت عن الحياة وربما وصلت مذكراتي إلى شخص ما يقرأها الآن ويقول في سره "أعشقت مرة أخرى يا وحيد؟؟ كل هذا الحب لسمية ثم تقول إنك أحببت؟"

أنا لا أعرف ماهية مشاعري ولكن نعم إنها أشبه بالحب ولكن ما زلت أرى سمية في كل شيء حتى في التفاصيل الآسيوية وبشرة "بي" الناعمة ورائحتها الذكية المحلاة بعطور الشرق الساحرة.

ظل الدولفين يراقص مدربه في هذا العرض وهي كانت تجلس بجواري وحدث كل شيء بسرعة كما تعودت في حياتي وكانت بيننا

القبلة الأولى في هذا العرض، كانت تجلس بجواري وتمسك يدي وسرعان ما قبلتني وقبلتها، قالت لي في البداية: آسفة ربما تسرعت.

ولكني لم أجب على كلامها إلا بقبلة طويلة ربما بقيت حاضنا شفاه "بي" حتى انتهاء العرض المائي ولم أدري بالوقت من حولي.

وعدتني بلقاء آخر غدا وعرفت مني مكان الفندق الذي أقيم به في "باتونج" وكان يوم لقائنا هو مناسبة لطيفة في تايلند تسمي "عيد الماء" يقوم الكل بسكب الماء على بعضهم أو رشه من خلال مسدسات مائية في شكل طريف ومحبب إلى الكبار والأطفال.

ظلت بي تداعبني بالماء وأبحث عنها وسط الحشود وأرش عليها الماء من مسدسي ظلت تضحك وأنا أضحك لساعة كاملة، بدأت أنسى بعض مشاكلي وأعود لجزء من السعادة التي فقدتها في حياتي، شعرت بشيء حي في نفسي يقوم من قبره من جديد، شيء في قلبي في مرحلة الانتعاش على يد تلك الآسيوية الجميلة خاطفة القلب والعقل.

تطورت الأحداث بسرعة وذهبنا إلي شقتها، دعتني إلى بيتها وأعدت لي أكلة تايلندية وقالت إنها الأشهر وتسمي "توم يوم جونج"، كنت أعشق الأكلات المختلفة في كل بلد، ومن الأطباق الآسيوية التي أحببتها "ناسي ليماك" في ماليزيا.

أكلنا معا وحكت لي أكتر عن تفاصيل حياتها وعائلتها، تركها أبوها وهي في سن صغيرة جدا مع أمها وهجرهم من أجل امرأة أخرى فعملت في الشوارع كبائعة للحلوى التي تصنعها أمها وبعد أن ماتت أمها مبكرا تكفلت بها عمتها التي أعادتها للمدرسة بعدما وجدت فيها ذكاء وسرعة في التعلم لدرجة وصولها لكلية اقتصاد وعلوم سياسية في بانكوك ولكن لأن العالم متشابه في أمور كثيرة كانت الوظائف أيضا بالواسطة

في أمور كثيرة فقدمت لوظيفة مهمة وتم رفضها رغم أنها من أوائل الطلبة.

ولم تجد ما تعيش به حياتها ولم تجرأ على طلب المزيد من الأموال من عمتها بعد التخرج فعملت في إحدى صالات المساج المنتشرة في بوكيت وكانت تقول لعمتها إنها تعمل في مجال آخر لأن عائلتها لا تحب تلك المهنة بسبب سمعتها في تايلند واقترانها الدائم بالجنس، ثم جاءتها فرصة مناسبة للعمل في مكتب للترجمة فتركت المساج وذهبت إلى الفرصة التي كانت تبحث عنها وملائمة أكثر لشهادتها رغم أنها مهنة بعيدة عن تخصصها ولكنها كانت تجيد الإنجليزية وكانت ترى أنها مهنة جيدة بعيدا عن المساج الذي تعلمته وأتقنته فترة من عمرها.

تذكرت بمناسبة ما قالته عن عملها كبائعة للحلوى عن بائعة حلوى صغيرة جاءت لأبي ذات يوم وهو خارج من إحدى اجتماعاته المهمة في الحزب، كنت أنتظر والدي في السيارة وما زلت لا أنسى هذه اللحظة التي أرتني الحقيقة وكيف تغير قلب والدي على مدار السنوات، والدي قال لها أن تبتعد في النهاية ولكنها تمادت قليلا بسبب الفقر والعوز فترك الحرس يصفعها على وجهها حتى ابتعدت وهي تبكي بانكسار واضح، كانت تمسك خدها الأيمن بضعف وقهر وشعار الحزب في الخلف يزين المبنى، كان هذا المشهد كفيلا بأن يجعلني أكره السياسة ومن يمارسونها مدى الحياة، وكفيلا بأن يجعلني أكره الصحافة التي كانت تزين المشهد وتضع له المكياج بعد ذلك زيفا وبهتانا، لقد رأيت الخبر في الصحف القومية في اليوم التالي بأن أبي يعطف على الفقراء ورأيت صورة لأبي وقادة الحزب وهم في حي شعبي ويلوحون للفقراء وهم لا يهتمون بهم حتى.

كان لي أسباب كثيرة منها هذا المشهد الكاسر للقلوب ورحيلي عن سمية وتغير أبي بعد انضمامه لهذا العالم من اجتماعات ومجلس شعب ولعبة الانتخابات. كل شيء كان يظن أنه سيجعله يملك العالم كان يفقده العالم بالتدريج. لن تملك العالم بالأموال فقط صدقني لابد أن يكون العالم داخل قلبك أولا.

كنا نأكل وكانت تقول لي: لا أعرف تحديدا ما جذبني إليك ولكن أشعر بأن أرواحنا تلاقت، أشعر أني رأيتك من قبل في حلم ما.

قلت لها وأنا أمسك خصلات شعرها الناعم المنساب كجدول رقيق: وأنا أيضا، منذ رأيتك شعرت بأن لقاءنا لم يكن صدفة، لقد جمعنا قلب الحياة.

مارست معي الجنس بأسلوب لم أعهده، كل شيء في آسيا مختلف، كانت تضع الزيوت على جسدي من خلال خبرتها بالمساج، زيوت من اللافندر واللوز وأنواع أخرى تعج برائحة مجنونة واحتكت الأجساد ببعضها البعض وكانت تهمهم في سرها بكلمات غير مفهومة وتطلب مني أن أغمض عيني، لا أخفيكم سرا أنه كان أشبه بالسحر، لا أعرف كم لبثت في هذا السرير وأنا في نشوة لم أصل إليها من قبل في حياتي، هناك شيء ما غريب حول هذا النوع من المساج وهذه الكلمات التي كان لها وقع السحر على قلبي.

قالت بعد أن انتهينا: هل أعجبتك؟

قلت: كل شيء فيكِ مذهل يا "بي"، كل شيء.

قالت : إنه "التانترا" له سحر دافئ وغامض ونافذ إلى البشر!

سألتها: وماذا تعني التانترا؟

عرفت منها أن التانترا حالة روحية من التوأمة بين القلب والعقل وهي نوع من أنواع التأمل يمارسه الكثير من أتباع البوذية والهندوسية وأصبح منتشرا حول العالم كله، ينصحون به بين الأزواج لتحقيق حالة مختلفة من النشوة لم يعهدوها من قبل وهناك مراكز منتشرة لممارسة أو تعليم التانترا.

غالبا نوع مساج التانترا يكون مقرونا بالجنس المصحوب بحالة من التأمل والاندماج الكامل كأنه أشبه بعبادة روح لروح.

عرفت من "بي" أيضا أنها ملمة بما يسمي "الشاكرات" ووجدت في إحدى تعريفاتها أنها "مركز لنشاط يستقبل ويستوعب ويعبر عن قوة طاقة الحياة".

مراكز طاقة في الجسم تعرف كيف تلمسها بخفة وتصل إلى أعمق ما فيك من خلال حالة استرخاء سحرية.

وكأن شيئا ما يسوق قلبي إلى هاوية جديدة، صراع الحب الأول مع الحب الثاني ولكن ستبقى سمية داخلي ما دمت حيا، رغم أن الملامح الآسيوية تضرب في شراييني بأظافرها الرقيقة.

نظرت إلى عيني ونحن مستلقيان في السرير وقالت: لا أعرف كيف تحمل لنا الحياة كل هذه المفاجآت؟ أتيت من بلاد بعيدة لتجعلني أشعر بشعور لم أجربه من قبل مع شخص أحبه، ابق معي لا ترحل يا وحيد.

يقول نجيب محفوظ أن الحب هو العمر الحقيقي، حسنا ما عمري الآن هل هو ألف عام؟، أصبحت لا أتحكم في قلبي ولا أتحكم في مكان أو زمان، لا أعرف لماذا يفعل بي الزمن أو أي قوة خارقة كانت كل هذه الأفعال الغريبة.

لماذا لا أعيش حياة طبيعية مثل سليم صديقي الذي تخرج في الجامعة فتزوج من حب حياته وانتهى الأمر بنهاية طبيعية وأسرة بسيطة.

أحيانا أسأل نفسي هل لو كنت إله لفعلت كل هذا بمن خلقتهم؟ لا أدري؟ ولكني أشعر بأنني لعبة في مشهد ما، دمية يحركها القدر ولا تستطيع الخروج من تلك اللعبة، هل لرجل الخريف دور في كل ما يحصل أم انتهت حكايته؟

تحسست شعر "بي" الناعم وقلت لها وهي تجلس جانبي عارية بجسد ملتهب: هل تشعرين معي بالسعادة يا بي؟ أنا أشعر بسعادة غامرة وأنا بجوارك، أشعر بأني امتلكت الحياة مرة أخرى.

قبلت رأسي وقالت في حنان: أنت أول رجل أشعر معه بهذا الإحساس وبسرعة غير متوقعة من أول لقاء ومن أول نظرة جمعتنا.

خرجنا معا من الفندق إلى شاطئ باتونج ثم ركبنا دراجة بخارية متجهين إلى شاطئ آخر يسمي "كمالا" ثم مكان عالي نلتقط منه الصور الطبيعية الجميلة يسمى "كارون فيو بوينت" ثم ذهبنا إلى عرض رائع للأفيال التي تتميز بها البلاد الآسيوية، فالأفيال هنا لها سحر خاص واهتمام كبير وكذلك القرود التي يستعملونها في عروض كوميدية مع مدرب خاص بها.

ذهبنا للسينما لمشاهدة فيلم وكانت المقدمة عن ملك تايلند وقام الحضور فجأة في تحية للملك مع صوت الموسيقى والسلام الوطني للبلاد، هنا يعتبرون الملك مقدسا، حتى قصة حياته وحكمه للبلاد مقدسة ويعتبرونه بطلا خالدا، تذكرت حال وطننا العربي وقلت لنفسي ساخرا "واضح أنني لم أرحل بعيدا"!

خرجنا من السينما ورأيت في أحد المحلات في مكان للتسوق تمثالا صغيرا لبوذا ونظرت باهتمام إليه فسألتني "هل أعجبك؟ هل تريد أن تعرف أكثر عنه؟"

قلت لها: أتمنى ذلك.. هل نذهب غدا إلى معبد من معابدكم، هل ستكونين مرشدتي؟

قالت وهي تضحك: اممم هل تريد أن تكون بوذيا؟ شيء مثير للاهتمام.

قلت لها مبتسما: حب استطلاع، أريد أن أرى كيف يكون وما هي تعاليمه وكيف تتعبدون هنا.

قالت: هل تعرف، ليس الكثيرون مثلك بهذا التسامح، البعض من الأديان الأخرى يحرم حتى دخول المعبد وأحيانا الجلوس حتى مع بوذية مثلي.

قلت لها: وهل أنا مثلهم يا بي؟

قالت وهي تضع يدها على رأسي: أنت غيرهم يا وحيد، قلبك نابض بالحياة رغم حزنه، أعرف أنك سعيد معي ولكني أشعر بحزن دفين في ابتسامتك وكأنه حزن صنعته سنين طويلة.

قلت لها: المهم ما أشعر به الآن لا داعي لأن أقلب في مواجعي، أنا سعيد معكِ وبحبك يا بي.

أنا أغرق في حب "بي"، نعم الآن أستطيع أن أقول إنه حبي الثاني، هذا ليس صراعا بين الإعجاب والحب بل بين حب وحب آخر، قالوا في المثل أن "الحي أبقى من الميت" ولكن الميت بين عينيك يا بي أبقى وأخلد من ألف حي وحي.

كان هذا السفر في البداية لكي أبدأ بداية جديدة وأهرب من أوهامي ورجل الخريف ولكي تتحسن حالتي والآن وقعت في صراع جديد، لم أتخيل أن أدخل تلك الدائرة النارية بين عشقين.

آه وألف آه يا سمية، من عاش في الحب ساعة أقوى ممن عاش في النار دهرا كاملا، فأعطيني قوتي ودعيني أغرق في عينيك ولو لحظة، فمن عاش فيهما أقوى ممن عاش في الحب وقهر النار.

أشعر بأنني لوحة موناليزا، سخط وحزن وابتسامة وسخرية وندم، أنا شيء من صلصال قد يحفره أحدهم فيشكلني قصيدة رثاء حزينة.

أحبك يا سمية كنقش في قلبي ولكن جمال بي لا يفارقني ولا يخرج من عيوني، سامحيني يا سمية فلا أعرف من يتحكم في قلبي.

"بي" لها من بشارة الروح ما لا تعقده أنامل تسبيحا بجمال السماء، والفم دقيق، والأنف رقيق، والجرح عميق في قلب الرائي، هي الجنة، لا ينقصها سوى أن تعلو فوق هامات العشاق بكعبها لتحلق لعلاها.

اتفقنا أن نذهب إلى المعبد في اليوم التالي وذهبت هي إلى منزلها ثم ذهبت إلي فندقي ونمت نوما عميقا بعد يوم طويل في الخارج.

كنت أريد عربية خاصة لكي تقلنا إلى المعبد الذي يبعد مسافة كبيرة عن مكان الفندق فتذكرت عمران واتصلت به وجاءت بي أمام الفندق تقابلني وانطلقنا من هناك إلى معبد "وات شالونج" من أهم أماكن الزيارات في هذا البلد.

"النيرفانا "

كان عمران طيب القلب ولكنه فضوليا كذلك كعادة معظم السائقين وسألني عن الفتاة وكأنه يلومني لماذا رفضت عرضه إذا كنت قد جئت لهذا البلد من أجل المتعة، بالطبع لن أستطيع أن أفسر له أني شعرت بمشاعر جديدة لها، في هذا البلد اللهو هو الأساس وليس المشاعر الحقيقية ولكني كالعادة أكسر التابوهات.

تعجب عمران من زيارتنا للمعبد ولم يكن راضيا في سره عن هذه الزيارة لمعبد بوذي، أنا غيرك يا عمران أنا قلبي مفتوح لكل الأديان رغم عدم معرفتي بالحقيقة، الكل يتكلم بنفس اليقين، قابلت الهندوس سابقا في الهند وقابلت زرداشتيين وغيرهم من مئات الديانات يا عمران فدعني أبحث في طريقي.

وات شالونج كان معبدا غير عادي يتميز بمبان تسحرك بطرازها الآسيوي وألوانها المتناسقة، كان الجو ملتهبا كعادة تايلند وجوها المتقلب، فالجو هنا مجنون أحيانا تمطر بغزارة في نفس الوقت تشعر بحرارة غير عادية.

كانت "بي" تعرف أحد الرهبان الذي قابلته بالداخل بعد أن حددت هي موعد معه لمقابلتنا حينما وجدت شغفي بتمثال بوذا ففكرت أن تمدني بمعلومات أكثر عن ديانتها من راهب متخصص في مثل هذه الأمور.

رحب بي كثيرا وجعلني أشاهد تمثال بوذا داخل المعبد وخلعت حذائي قبل الدخول والتصوير مع هذا التمثال الذهبي البديع.

سألني: أنت من بلد عربية ومهتم بالبوذية أليس كذلك؟

قلت له مبتسما: أنا أحب أن أعرف أكثر عنها ولكني ما زلت في حيرة ليس لي دين معين حتى الآن، لم أملك اليقين يوما سيدي.

قال لي باهتمام: الكثيرون حول العالم في نفس حيرتك، أديان كثيرة وحيرة أكبر، من المؤكد أنك تسأل نفسك كل يوم ترى من يملك الحقيقة، من يملك بيده مفاتيح الجنة أو النار كما في معتقدات الأديان الأخرى، أنا لن أصل معك إلى نقطة الحقيقة فهي مرهونة بتفكيرك وحدك ولكني سأحكي لك عن البوذية وقصة المعلم وماذا نريد أن نصل من هذه الدنيا التي نعيشها.

قلت بشغف واضح: أنا كلي آذان صاغية.

كانت بي تجلس معنا وكان يتحدث بإنجليزية بها لكنة واضحة ولكنها مفهومة بالنسبة لي فلم تكن إنجليزيتي مثالية كذلك.

عرفت منه الكثير حول البوذية وقصة المعلم، بل أنه بدأ حكايته بقصة في صميم ما أريد أن أسمع عنه وهي قصة عن الحقيقة وكيف يراها الجميع من وجهة نظره وقال لي:

اسمع هذه القصة أولا حول الحقيقة التي يظن البعض أنه يمتلك مفاتيحها وحده، تقول القصة:

روى بوذا في قصة العميان والفيل (كتاب أودانا) أن أحد الملوك السابقين

لمدينة سافاتي أمر بجمع كل رعاياه العميان وتقسيمِهم إلى مجموعات، وبعد ذلك أخذت كل مجموعة إلى أحد الأفيال ووضعت أمام جزء معين من أجزاء جسم ذلك الحيوان كالرأس والخرطوم والأرجل والذيل، وهكذا، وفيما بعد طلب الملك من كل مجموعة أن تصف طبيعة ذلك الحيوان، فأما الذين لمسوا رأس الفيل فوصفوه

بأنه جرة ماء، وأما الذين لمسوا أذن الفيل فشبهوه بمروحة الغلال، وأما أولئك الذين لمسوا قدم الفيل فقالوا أنه يشبه العمود، وأما الذين لمسوا نابه فأصروا على أن الفيل يشبه الوتد.

وأخذت تلك المجموعات تتناقش فيما بينها وتصر كل مجموعة على أن تعريفها هو الصحيح وأن الآخرين مخطئون.

عرفت منه أن التأمل في تلك الجلسة التي يجلسها الرهبان ليس هدفها الحصول على أمنية أو تلبية رغبة ولكن الأهم هو الحصول على الحكمة والشفقة.

بعد ذلك ذهبت معي "بي" والراهب وأمسكنا ضفدعة صغيرة في كيس ثم ألقيناها في النهر ولم أفهم تحديدا لماذا فعلنا هذا، فقال لي الراهب وهو يشرح الأمر:

إن "أهيمسا" مبدأ بوذي يحترم كل المخلوقات وهو مبدأ أساسي في الأخلاقيات البوذية تحض التعاليم البوذية على احترام كل المخلوقات الحية، سواء البشر أو الحيوانات، وتعتبر التدمير العمدي للحياة خطأً فادحا.

وقد أدَّت هذه الفلسفة إلى أن أصبح الكثير من البوذيين نباتيين.

قلت: شيء عظيم جدا ولكن الأديان الأخرى أيضا تراعي الحيوانات فما المختلف في البوذية؟

قال لي الراهب:

الهدف النهائي للبوذية هو وضع نهاية للمعاناة والميلاد المتكرِر.

قلت له: ميلاد متكرر؟ تقصد فكرة التناسخ الشهيرة؟

قال: نعم ربما تكون غير مستساغة لمعتنقي الأديان الأخرى ولكن بطبيعة الحال هذا ما نؤمن به ونوقن به، الحياة معاناة يا وحيد.

قلت وأنا أضحك: أتيت للخبير يا سيدي، أعلم هذا جيدا.

قال: في البوذية المعاناة الإنسانية لها معنى وقيمة كبيرة، فعندنا مصطلح ربما تكون سمعته من قبل يسمي "الحقائق النبيلة الأربعة" وأولها أن الحياة معاناة وثانيها أن المعاناة سببها شهوات الحياة وثالثها أن المعاناة ممكن أن تنتهي ورابعها أن هناك طريقا يقود إلى نهاية المعاناة.

ثم أكمل وهو يشير بعصا صغيرة ويرسم دائرة على الرمال ويقول:

عدد مرات الولادة المتكررة للشخص هو عدد غير نهائي. وعملية الولادة المتكررة تسمي "سامسارا" وهو مصطلح يوحي بالحركة المستمرة.

وسوف تستمر الولادة المتكررة لهذه الكائنات إلى أن يحصلوا على حالة النيرفانا.

قلت: وكيف إذن يتم إيقاف هذه المعاناة إذا كانت طبيعة بشرية؟

قال: بما يسمى "الطرق النبيلة الثمانية، وهي تتلخص في الآتي، الرؤية الصحيحة، العزم الصحيح، الكلام الصحيح، الفعل الصحيح، العيش الصحيح، الجهد الصحيح، الوعي الصحيح، التأمل الصحيح.

سألته عن ما يشغلني وقلت: وماذا عن الخير والشر تلك القضية الأزلية؟

قال: دعني أشرح لك ما هي "الكارما"، ظروف المستقبل تتحكم فيها الأفعال الأخلاقية التي يقوم بها الشخص في حياته الحالية.

فكل حياة ستعيشها يا وحيد مرتبطة بحياتك السابقة حتى تستطيع الخروج من تلك الدائرة المتكررة لتصل إلى النيرفانا.

ونهاية المعاناة ستكون من خلال تصرفات البشر وتحقيقهم للخير والسعادة في حياتهم.

حكي لي الكثير عن بوذا وحياته وحكمته، قال إنه في أثناء ليلة من الليالي التي كان فيها جالسًا تحت شجرة كبيرة، اكتسب حالةَ اليقظة الكاملة التي كان يسعى إليها، وخلال الثُّلث الأول من الليل، اكتسب القدرةَ على النظر إلى حيواته السابقة، وتذكرها بتفاصيلها الكاملة، وفي الثُّلث الثاني من الليل، اكتسب نوعًا من البصيرة مكنه من رؤية موت وميلاد كل أنواع الموجودات في الكون على حسب أفعالهم الجيدة والسيئة.

وخلال الثُّلث الأخير من الليل، اكتسب معرفةَ أنه تخلَّص من مدنسات الروح.

في معتقدهم أيضا مثل باقي الأديان وجدت أن ميلاد بوذا مرتبط بالمعجزات ومن المعجزات التي يعتقدون فيها أن لحظة ميلاد بوذا وصل إليها سكان السماء للتعجب من الحدث واهتزَت الأرض ووقف الصبي على الفور وخطا سبع خطوات.

شكرت الراهب البوذي على وقته ووعدته بتكرار الزيارة مرة أخرى في المستقبل وقال لي: لا تقلق كلنا مررنا بمرحلة الحيرة والتردد وكلنا نمر بالمعاناة وستصل لحقيقتك الخاصة ذات يوم.

خرجت "بي" معي إلى خارج المعبد وكان عمران ينتظر في الخارج مستاء من المكان ومن تأخرنا داخل المعبد لوقت طويل، في عالمه الخاص يرى عمران أن كل من خارج هذا العالم مخطئون آثمون ولكن

لما لا تتسامح مع الجميع يا عمران لما لا يكون قلبك كقلب محي الدين ابن عربي

"مرعى لغزلان ودير لرهبان وبيت لأوثان"!

غريب أمر البشر في هذا العالم، عمران الذي يعمل كسائق وخاطبة وقواد في نفس الوقت يرفض أن يزور معبدا بوذيا لمجرد أنهم مختلفون عنه؟ ما طبيعة هذا الشخص وأي نفاق وزور هذا؟ هل وجدت العقائد لخلق حالة من التآلف بين الناس أم لجعلهم ينفرون من بعضهم البعض؟ أي زور هذا يا عمران؟

"المانترا"

لم يتبق من رحلتي سوى عشرة أيام في هذه الجزيرة التي رأيت فيها الكثير وتعلمت منها وعشقت فيها. هذه الجزيرة التي غيرت حياتي فجأة. كل تفاصيل هذا المكان ستترك أثرا في نفسي مادمت حيا.

ما زلت أفكر في سمية رغم حبي الثاني "بي" ولكن تبقى سمية هي وشم القلب الثابت الذي لا تمحيه الحياة ولا الموت. خرجت في الصباح وحدي أتجول في هذه البلدة حتى أقابل "بي" في المساء. تجولت وحدي وذهبت إلى مول تجاري وتسوقت هناك ثم جلست لأطلب القهوة وقدمها لي نادل أو قل نادلة فهنا لا تعرف الفرق فكثيرا ما تقابل نوع "الترانس" في هذه الجزيرة فلا تعرف ما طبيعة جنسه بالضبط ولكني تعودت على رؤيتهم.

دخلت إلى أحد الكافيهات الذي تعزف فيه الأغاني وتعرفت على أحد العرب هناك وجلسنا نحكي عن بعض الأماكن في الجزيرة وعن أماكن زيارتنا حتى قلت له أنني ذهبت إلى المعبد البوذي فقال لي: وهل أعجبك المكان؟ المعابد البوذية رائعة في تصاميمها.

قلت له: نعم أعجبني جدا وعرفت معلومات كثيرة عن البوذية من الراهب.

قال لي: إذا كنت تحب خوض هذه التجارب فأنا أعرف شخصا هندوسيا هنا في بوكيت يقوم بأمور عجيبة ويقسم الجميع أنها حقيقية والبعض لا يصدق ويعتبره دجالا.

قلت له في اهتمام: أي أمور يقوم بها هذا الرجل؟

قال لي: هل سمعت عن المانترا؟

قلت له: نعم أظن أنهم يستعملونها في البوذية والهندوسية للتأمل أو للصفاء الروحي.

قال: لا ليس هكذا فقط، المانترا لها أنماط كثيرة واستعمالات كثيرة بل أن منها ما هو سحري ولا يستخدمها ويؤمن بنجاحها الكثيرون ولكن هذا الرجل يستعمل هذه الأنواع الغريبة.

قلت: وهل هذا الرجل معروف هنا؟ كيف تعرفه؟

قال: أنا هنا وحدي في الجزيرة وجئت هنا لأقوم بتسجيل فيلم وثائقي عن أغرب ما يحدث في بوكيت ودلني أحدهم على هذا الرجل في منزله المتواضع وذهبت إليه لأقوم بتسجيل فقرة ولكنه رآني ورفض فكرة الكاميرا.

قلت له: وكيف يستخدم المانترا؟ في أي غرض؟

قال وهو يشرب كأسه: دعني أشرح لك، المانترا تعويذة صوتية لها مقاطع يقولون أنها تستخدم لتحرير القلب والعقل وإرسال إشارات كونية، ولكن هذا الرجل يستخدم النوع الغامض منها مثل أن يرسل إشارات معينة عن طريقها فيعود إليك شيء ضائع أو تنجو من الإفلاس أو الهزيمة في حياتك أو أي من هذه الأمور التي يقوم بها الدجالون في عالمنا العربي أيضا.

ضحكت وقلت له: تقصد مثل "جلب الحبيب" مثلا كما عند المشعوذين؟

قال: بالضبط ولكن الغريب أن البعض يقسم بها ولكن لا أصدقه طبعا.

كانت الأغنية التي تدور في المكان الذي نجلس به هي أغنية المطرب ستينج

Shape of My Heart

وكنا نسمع المقطع في الأغنية وهو يقول :

He deals the cards to find the answer

The sacred geometry of chance

The hidden law of a probable outcome

The numbers lead a dance

I know that the spades are the swords of a soldier

I know that the clubs are weapons of war

I know that diamonds mean money for this art

But that's not the shape of my heart

كعادتي لم يمر هذا الكلام علي مرور الكرام، عن أي خرافة يتحدث وأنا أصلا سافرت إلى عدة بلاد من أجل شجر أمنيات ونافورة، أنا ملك الخرافة، أنا مستعد لفعل أي شيء من أجل حب ضائع، حتى عندما قلت له بسخرية "جلب الحبيب" كنت أرددها من وراء قلبي فأنا مستعد لزيارة دجالين جلب الحبيب في عقر دارهم، كل شيء سأفعله من أجل سمية.

أخذت منه عنوان الرجل وسألني وهو يبتسم: هل فقدت شيئا أنت أيضا مثلهم؟

قلت له: لا ولكن حب استطلاع وتجربة جديدة.

قابلتني "بي" ليلا في الفندق هذه المرة وخضنا ليلة ممتعة معا ولكن كأن الوردة بدأت تذبل، ليس وردة جمالها الآسيوي الفاتن ولكن وردة قلبي المجنونة التي تمر بألف صيف وشتاء في اللحظة، أكون

أحيانا بين أحضان بي وأفكر في سمية وأفكر في الحب الأول والثاني وأي منهم سينتصر أخوض مناقشات بيني وبين نفسي عن أي عشق سينتصر في النهاية.

لاحظت بي أني لم أكن معها بقلبي مثل المرات السابقة لم أكن أنا، هناك شيء تغير ولا يوجد أقدر من المرأة لفهم تغير مشاعر الرجل وتفكيره في شيء آخر، المرأة عندها مواهب خارقة فيما يخص تغير الرجل وتبدل أحواله أو خيانته.

قالت لي وهي حزينة: هل لم تعد تحبني؟

كان السؤال مباشرا وصريحا وواضحا وكأنها دخلت إلى أعمق شراييني وخلايا عقلي ولكني ما زلت لا أعرف الإجابة وقلت لها: لا يا بي أحبك ولكن هناك بعض الأمور تقلقني.

قالت: لما لا تحدثني عن مشاكلك دعني أحمل عنك همومك.

قلت لها: تبقى لي عدة أيام على السفر، سأفتقدك يا بي.

جلست على طرف السرير وهي حزينة حينما تذكرت سفري، كانت قد تعودت على وجودي ولا تعرف حتى كيف ستكون حياتها مرة أخرى بعد سفري من هنا إلى وطني.

قالت: هل ستنساني أم ستعود؟ أتمنى أن تبقى، لما لا نعيش معا؟

قلت لها: ربما يحدث يوما ما يا بي، كل شيء في هذه الحياة يحدث لي على سبيل المفاجأة، الحياة مليئة بالمفاجآت، ربما نعيش معا ذات يوم.

وحدث ما كنت أتوقعه، لم أستطع أن أقاوم، ذهبت إلى هذا الرجل الهندوسي وأحببت فكرة المانترا ولما لا وأنا رجل الأمنيات والشجر والسفر، لربما تنجح معي هذه التجربة الأخيرة، ومن الغريب أني أبحث

عن سمية في وسط كل هذه التجارب مع بي، بدأت زهرة بي تذبل داخلي وعادت شجرة سمية الباسقة مرة أخرى، لا أستطيع التفكير في أي امرأة الآن غير سمية الحبيبة.

دخلت إلى منزل الهندوسي في العنوان المذكور ولم يكن الهندوس هنا كثرة بل هم قلة وكثيرون تحولوا إلى البوذية فأغلبية تايلند بوذية باكتساح.

دخلت إلى مسكنه الغريب المليء بصور الآلهة الهندية على الجدران ومقاعد خشبية غير مريحة، بيت صغير للغاية أشبه بشقق الأستوديو لا تستطيع التحرك فيها بحرية.

أمرني بالجلوس وسألني عما أريد فقلت له: شيء ضائع مني وأريد استعادته.

قال لي: من قال لك عني؟ هل هو الرجل صاحب الكاميرا الذي جاء من يومين هنا؟

قلت له: في الحقيقة نعم وحكى لي عما يسمى المانترا وأريد أن أخوض هذه التجربة مهما كلفتني.

قال لي: أنا لا أريد نقودك، لا أريد شيئا من هذه الحياة يا بني.

كان رجلا عجوزا أشعث الشعر لا تظهر ملامحه بوضوح من قبعة يضعها على رأسه بل أكاد لا أرى عينيه حتى ولا وجهه.

قلت له: حسنا ماذا تريد.

قال: لا أريد منك شيئا، اجلس وسأحقق لك ما تتمناه.

يا ليت الأمنيات تتحقق بهذه السهولة واليسر، جلست وأنا غير مصدق لما سيفعله ولكنه بدأ يجلس في وضع القرفصاء وقال لي أن أفعل مثله وقال لي: كم تبقى على سفرك لبلدك؟

قلت: لم يبق الكثير فقط بضعة أيام.

قال: لكي تتحقق أمنيتك ونخوض تجربة المانترا ستأتي إلي كل يوم وربما سنجلس لعدة ساعات حتى تنتهي الجلسة فهل لديك الوقت؟

قلت: ولما لا دعنا نذهب في عالم المانترا.

وضع يده على جبيني وقال لي: أنت مليء بالهموم يا صديقي، أنت محمل بأطنان من الحزن والعذاب.

قلت له: فقدت حبيبتي وعائلتي، أعرف أني لا أستطيع استعادة عائلتي ولكن هل تستطيع أن تعيد لي حبيبتي؟

قال: تزوجت سمية أليس كذلك؟

فزعت مما قال وارتعدت وقلت في تلعثم: كيف؟؟ كيف؟؟

قال: الهدوء يا عزيزي لا تخف أنا أعرف عنك كل شيء الآن، دعني أعيدها إليك ولكن أسمع مني كل ما سأقوله واتبعه.

جلست في وضع أشبه بأوضاع اليوجا وأغلقت عيناي وبدأ يقول بعض الكلمات الغريبة التي لا أفهمها وجلس وكأنه ينشد نفس الكلمات ويكررها لمدة ساعة تقريبا ثم قال لي سنكرر كل يوم هذه الكلمات وسنسمع اللحن هذا، وأتى لي بجهاز تسجيل قديم وبه شريط وفتح أمامي الموسيقى على نفس الكلمات التي كان يرددها.

كان على الشريط كلمات:

Om Damodaraya Vidmahe

وبعض الكلمات الأخرى باللغة الهندية على ما أظن.

كانت الموسيقى ساحرة غريبة لها تأثير غريب على نفسي وأنا في جو الغرفة المظلمة ولا أفتح عيني، ساعات وساعات تحت تأثير المانترا وجودها الأخاذ المجنون المحطم للقلوب، تجربة مرعبة روحانية غريبة لم أخضها في حياتي، من كان يتخيل أن تصبح حياتي بهذا الشكل، ساحر هندوسي في تايلند بتعاويذ المانترا فوق رأسي في غرفة مظلمة، حالة من الجنون متكامل الأركان.

بدأت في آخر الأيام قبل سفري أهمل "بي" تماما، لقد انتصرت سمية كالعادة، الحب هو سمية وقلبي مخلوق من أجل سمية، لم أكن أقابلها وقلت لها أني أخرج مع مجموعة من العرب الذين قابلتهم وسأقابلها فيما بعد وظللت أقوم بتأجيل موعدنا وأذهب إلى الهندوسي يوميا أقضي معه ساعات طويلة جدا أسمع نفس اللحن ونفس الكلمات بانتظام.

كان اليوم الأخير في تايلند وسأسافر غدا إلى مصر مرة أخرى، قابلتني "بي" في النهاية وكانت تنتظرني في بهو الفندق ووجهها مليء بعلامات الاستفهام وهي تقول: هل فعلت شيئا ما أغضبك؟ لماذا تتجاهلني يا وحيد؟

قلت لها: صدقيني لا أتجاهلك ولكني كنت أخوض تجربة ما مع مجموعة من الأصدقاء.

قالت: هل تقصد الهندوسي؟

قلت في تعجب: ماذا؟ كيف عرفتِ بهذا الأمر يا بي؟

قالت: لقد رأيتك بالصدفة وأنت تخرج من الفندق وكنت قد أتيت إلى هنا لمقابلتك ثم تتبعت خطاك وعرفت أنك دخلت إلى بيت هذا المجنون، ابتعد عنه يا وحيد هذا الرجل خطير ولا نعرف تحديدا ما الذي يفعله في هذه البلاد لقد أذى الكثير من الناس.

قلت لها: لا تقلقي، هي مجرد تجربة لا أكثر.

قالت وهي دامعة: وما الذي فقدته وتبحث عنه يا وحيد؟ هل هو حب؟ ألا تحبني؟

قلت لها: أحببتك يا بي صدقيني ولكن أنتِ لا تعرفين ما أمر به، لم أحكي لكِ كامل تفاصيل حياتي، حياتي حفنة من الرماد يا بي لا أريد أن أثقل كاهلك بأحزاني.

قالت وهي تنظر إلى عيني بإصرار وهي تبكي: هل ستعود إلي مرة أخرى؟

قلت وأنا أنظر إلى الأرض: لا أعرف يا حبيبتي ولكن ربما يجمعنا الزمن.

خرجت من الفندق وهي حزينة بعد أن عانقتني وتمنت لي السلامة في رحلتي إلى مصر التي اقترب موعدها، لقد كسرت قلب حبيبتي بي لقد انتصر الحب الأول ولكن دمعت عيناي من أجل بي الجميلة التي عرفت في باطن نفسي أنني ربما لن أجيء إليها مرة أخرى.

ذهبت في زيارة أخيرة إلى الهندوسي في اليوم الأخير قبل موعد الطائرة لأودعه فوجدته لا يريد مقابلتي في البداية حتى أصررت أن أعرف ما الذي حدث فقال لي إن امرأة قد جاءت إلى هنا وصرخت بوجهه واتهمته بأني أضعت حبها منها، أنها "بي" بالتأكيد.

قلت له أن يهدأ وحاولت أن أخفف عنه وقال: لقد ضربتني هذه المجنونة دون أن أدري حتى ماذا فعلت لها.

قلت له: سامحني أيها الرجل فهي امرأة وتغار وأنت تعرف قوة الغيرة عند النساء.

فجأة أضاء النور لأول مرة في هذا المكان المظلم وخلع الرداء والقبعة ووجدت بدلة ناصعة البياض وزهرة في جيبها بشكل غريب ثم أزال الذقن الطويلة ووجدته أمامي مرة أخرى في مشهد مرعب وابتسم لي وقال وهو يخرج علبة من جيبه بها أوراق خريف وقال لي: في خدمتك يا وحيد معك في أي مكان؟

صحت في وجهه: أنت أيها القذر مرة أخرى؟؟ ماذا فعلت؟؟ ما الذي كنت أردده معك إذا؟؟هل سحرتني؟

قال: لا تقلق أنها مانترا حقيقية، وهذا الرجل موجود بالفعل ولكني طردته اليوم من المكان ولبست زيه فقط، ستتحقق أمنيتك يا وحيد ربما تجد اتصالا من سمية لأن قلبها متيما بك اليوم بسبب المانترا وتأثيرها.

قلت له: أخرج من حياتي أيها البائس، ماذا تريد مني يا عديم الكرامة يا قاتل.

قال: وأنت ألم تقتل قلب حبيبتك اليوم؟

قلت: وما دخلك أنت؟ اللعنة عليك وعلي أوراق خريفك.

قال: بمناسبة الأوراق هذه هي الورقة الثالثة، لقد أنهيت مهمتي ربما ستعود لك سمية قريبا.

اختفى فجأة من أمامي ولم يبق له أثرا، وجدت الزي يسقط على الأرض ويختفي هو من داخله.

خرجت من المكان وأنا مرعوب من هذا الشيء الذي يطاردني حول العالم ولا أستطيع الهروب منه، أنه لعنتي التي لا حل لها ولا مهرب.

وجدت رقما غريبا على الهاتف في طريق عودتي للفندق لتجهيز آخر حقائبي للذهاب إلى المطار، ربما يكون رقم سمية، ربما تكون المانترا قد نجحت لا أعرف ولكن كل شيء جائز في هذا العالم المتقلب.

كنت أتناول العقاقير النفسية ولكني لم أتعاطاها منذ فترة وشعرت بحالتي تسوء وبرغبة ملحة في أن أنهي حياتي، وكأن صوتا يغني داخلي بآخر أغنية للموت، لم أرد على الرقم الغريب خفت بالفعل أن تكون سمية ولا أعرف ماذا أقول شعرت بالخجل من المانترا وماذا فعلت من حيلة سحرية لاستعادتها، خفت من فكرة أن تكون المانترا ذات تأثير حقيقي، كل هذه التجارب الأخيرة من حب آسيوي وهندوسي ورجل الخريف والمانترا أصابتني بشلل في التفكير حتى أني جلست أبكي في الطائرة بدون سبب وأحلم بالذهاب إلى أهلي في الحياة الأخرى أن وجدت، ما زلت لا أؤمن بشيء في هذا العالم غير الحب، وربما يشملني الله بحبه ويجعلني أؤمن بهذه الحياة الأخرى ويسامحني.

أنا غاضب جدا، من كل ما مر في حياتي ومن إحساس الفقد ومن قدر لم يرحمني ومن صحافة كاذبة ومخادعة ومن رحلة حياتية محفوفة بالموت والخذلان واليأس.

غاضب من أقارب لم يسألوا عني في محنتي ومن أمنيات خادعة وغاضب من نفسي ومن ضعفي.

وصلت إلى المطار وذهبت إلى منزلي ولا أعرف أي صباح سيأتي وأي مساء سيطمئنني على حالي، لا أعرف هل سيأتي اليوم التالي ويطل بشمسه على وجهي أم سيكون يوما كئيبا آخر بدون سمية، وصلت

المنزل ومعي دفتر مذكراتي أسأله وأسأل العالم أجمع، لماذا رحلتم، لماذا رحل أهلي ولماذا رحلتي يا سمية؟ لماذا تركتيني طفلا هائما على وجهه في طرقات مزدحمة لا أعرف لها مخرجا.

لم يعد هناك غير مذكراتي أشكو لها وأحدثها بكل ما يجول في عقلي وكل ما في قلبي من حزن دفنته السنين بألف حفار للقبور.

لم أعد أرى سوى الموت ولا أعرف هل ستأتي العقاقير بنتيجة أم انتهى تاريخ صلاحيتي لها.

لماذا رحلتي يا سمية؟

لحظة الحقيقة

حسنا حسنا عزيزي القارئ، دعونا نلعب الآن لعبة مثل التي لعبتها مع وحيد، ربما تجدني في عقلك أو عن يمينك أو عن يسارك وأنت تقرأ الآن فلا تخف.

من أنا؟؟ تسأل نفسك الآن من المتحدث أليس كذلك؟ أنا مثل الحقيقة قد أكون موجودة ولا تشعرها وقد أكون في عقلك فقط وقد أكون في سن قلم مفروضة عليك وستصدقها.

دعونا نبدأ لعبتنا وسأدعك من هذه النقطة تختار طريقا من ثلاثة طرق أو ثلاثة نهايات لتلك الرواية، نعم يا عزيزي أعلم أن فضولك سيدفعك لقراءة النهايات الثلاثة وتسير في الطرق الثلاثة وهذا ما يمتعني في هذه اللعبة.

ربما حتى الآن أنت حائر في حقيقة وحيد، هل هو مجنون؟؟ هل هو مجرد عاشق؟ ولكن السؤال المهم على بالك هو أنا، تشتاق لمعرفة حقيقتي أليس كذلك؟؟

اختر نهاية رواية وحيد بنفسك وسر في طريق من الطرق الثلاثة.

مع تحياتي:

رجل الخريف

"الطريق الأول"

نهاية وحيد الأولى

"دموع على القبر"

أغلقت دفتر المذكرات ورأيت التأثر الواضح في عين سمية وسعيد ابن أخي وترقرقت عين سمية بالدموع وهي تسمع مذكراته لأول مرة ولم تكن تدري أنه تكبد كل هذه المرارة في غيابها، نعم كانت تعشقه ولكنها ظنت مثل البعض أن الزمن كفيل بعلاج جراح القلب ولكن الزمن لا يداوي جراح الحب بل يظل ينقش فيها بنصل سكينه على مدار العمر.

قال سعيد: يا لها من قصة؟ ويا لها من شطحات خيال.

قلت له: ليست كلها خيال يا سعيد، هناك مزج بين خياله والواقع في ما كتب وحيد.

سعيد: رحلة مجنونة، قصة حياته ولا أغرب، حتى قلبه وكأنه مفتوح على مصراعيه لأي حب جديد.

قاطعته فجأة: لا يا سعيد، وحيد لم يعشق غير سمية.

نظرت سمية إلي وقالت: وبي؟ ألم يكن حبا آخر غيري يا سليم؟

قلت: كانت تجربة يا سمية، ربما كان حبه الثاني ولكن لم تنتصر على مكانك في قلبه وتركها في النهاية ومات بسبب إحساس الفقد والوحدة، لم تنفعه الأمنيات ولا المانترا ولا أي شيء في هذه الدنيا بعد رحيلك ورحيل عائلتك.

قال سعيد بفضول: ولكن كيف مات في النهاية؟ كانت آخر تفاصيل مذكراته عن رحلة العودة إلي مصر، فماذا حدث بعد هذا؟

قلت له: هناك المزيد من التفاصيل التي عرفتها قبل موته وجزء أخير في مذكراته لم أرويه بعد.

قال: ألم تكن تلك هي نهاية قصته وآخر سطوره؟

قلت: لا يا سعيد هناك جزء أخير.. إنها "جميلة"

قالت سمية: الاسم الآخر المكتوب على قبره

قلت: هو من طلب ذلك ولا أعلم لماذا، ترك أمنياته في ورقة قبل رحيله.

قال سعيد: ومن هي جميلة؟ حب جديد آخر؟

قلت له: سأروي لكم كل شيء، كان المشهد الحزين في النهاية هو آخر ما رأيناه ورأته سمية، وحيد معلق بحبل في سقف غرفته منتحرا بعد أن مل من قسوة الحياة، ولكن عرفت تفاصيل من بواب العمارة عن آخر أيام حياته، كان يفتح باب بيته باستمرار بشكل غريب، حتى أن البواب قد حذره من ذلك حرصا على سلامته، وكان دائم الجلوس أمام مرايا المنزل ينظر إلى نفسه فيها.

دخل عليه البواب في إحدى المرات وأمره وحيد أن يجلس على الأرض معه متأملا في المرايا المتعددة.

كان البواب حائرا لا يفهم ما يدور فجلس معه وقال: تحت أمرك يا أستاذ وحيد.

قال له وحيد: ألا تريد أن تعرف قدرك يا عامر؟

قال متلعثما: قدري؟؟ لا يعرف القدر إلا الله يا أستاذ وحيد.

قال وحيد: حسنا ربما هي توقعات فقط يا عامر.

ظل يمسك كفيه وينظر إلى المرايا بشكل محير وظن عامر أن وحيد فقد عقله بشكل كامل، وتوقع لعامر أن يتزوج ابنه خلال عامين من بنت صعيدية من شارع قريب، ابنة أحد البوابين أيضا ولكنهم آتين من الصعيد.

ضحك عامر وقال: هذا شيء مستبعد يا أستاذ وحيد ابني لم يفاتحني أبدا في قصة الزواج ولا أظن أنه سيتزوج صعيدية فلهم عادات غيرنا ونحن أصولنا قاهرية عشنا فيها طوال عمرنا.

قال: ربما يا عامر، وربما لا.

كلمه عن أصول أي جد من جدوده وكيف تزوج من الصعيد وأثبت له دون أي أوراق أن له جذورا صعيدية قديمة هو الآخر.

وقال عامر: مستحيل لم يحدث هذا.

قالت سمية: وهل حدث هذا؟ هل كانت نبوءة حقيقة وكيف عرف؟

قلت: ما زال عامر محتارا حتى الآن ويقول عنه أنه كان ولي من الأولياء عندما تزوج ابنه بالفعل من صعيدية وكشف عن أوراق عائلته فوجد جد من جدوده له جذور صعيدية، جاء لي عامر في يوم وهو يبكي وقال: إنه ولي يا سيدي، ولي من الصالحين.

قالت سمية: وما قصة جميلة؟

قلت لها: هذا ما يحيرني يا سمية وما زال اللغز في هذه القصة وأظنه الجزء المختلق في قصة وحيد.

قالت: وما هي قصتها تحديدا؟

قلت لها: آخر ما كتبه وحيد في مذكراته هو حوار مع جميلة، وكان آخر فصل قبل انتحاره، دعونا نقرأ كلمات وحيد في مذكراته، آخر كلماته.

"حوار مع جميلة"

جميلة كانت جارتنا منذ سنوات، وكانت اسم على ما يسمى وكما قالوا كل منا له جزء من اسمه.

كانت تقف بجوار الشباك صامتة، كل يوم أراها في نفس المكان حتى تناديها أمها لتناول بعض الأدوية، كنا متشابهين في كل شيء، الإحساس بالوحدة، الإحساس بأننا مظلومان ونعيش تحت قهر الحياة وكأننا رهائن تحت تهديد السلاح.

أحيانا كنت أرى دموع جميلة وهي تقف وحدها، ولكني قابلتها في إحدى المرات في الحديقة وقلت لها: حزينة أنتِ يا جميلة مثلي.

قالت وهي تمسح دمعة على خدها: وحيد أهلا بجاري العزيز.

قلت: لماذا تبكي يا جميلة؟

قالت: أنت أيضا تبكي سرا يا وحيد رأيتك أكثر من مرة، نحن في الحزن سواء يا وحيد.

قلت: ظلمتنا الحياة يا جميلة لم تترك لنا زهرة إلا وقطفها الألم، لم تترك لنا نقطة عسل مما صارت توزعه على الخلق.

قالت: ربما في ذلك حكمة؟ أمي قالت ربما في ذلك حكمة.

قلت في عصبية: أي حكمة؟ أمك تطمئنك يا جميلة؟ لا يوجد حكمة في أي شيء؟ أي حكمة في فرض الحزن علينا طوال حياتنا حتى تمني الموت؟

قالت: أمي قالت أن أستعن بالدعاء؟

قلت: أمك جربته كثيرا يا جميلة، أمك تدعي ليل نهار أن تتحسن حالتك، ولكنكِ تبكي ليلا ونهارا.

قالت: هل جئت تزيد من يأسي يا وحيد؟

قلت: بل جئت لنتشارك الحزن ونحاول الوصول إلى مخرج من هذه الأزمة، أنا قررت الموت يا جميلة.

قالت: الموت؟؟ ستنهي حياتك يا وحيد؟ هل جننت؟ ألم تفكر في....؟

صمتت جميلة فجأة لأنها تذكرت أني وحيد بالفعل بلا أي شخص سيسأل عني إن مت ربما سليم فقط هو من سيسأل عني.

قلت لها في حزن: لم أفكر فيمن يا جميلة؟ لا أحد سيحزن عليّ إن رحلت، كل من لي قد رحلوا.

قالت وهي تقاطعني: ولكني لم أرحل يا وحيد، أنا موجودة وسأفتقدك، أرجوك لا تفكر في هذه الفكرة مرة أخرى من أجلي.

قلت في تأثر: كم أنتِ رائعة يا جميلة، كم سأفتقدك يا عزيزتي وصديقتي الأبدية ولكن صدقيني علي الرحيل، لم أعد مرغوبا يا جميلة، أشعر بلفظ الحياة لي ورفضها لوجودي ولا أعرف لماذا.

قالت وهي تحتضنني فجأة: لا يا وحيد أرجوك لا تتركني أنا لا أرفضك أنا أتمنى أن أعيش بقربك.

قلت وأنا عازم على قراري: ربما تجمعنا حياة أخرى يا جميلة، ربما.

"سمية واللقاء الأخير"

قالت سمية في حيرة بعد أن سمعت هذه الكلمات من مذكرات وحيد: ولكنه لم يحدثني يوما عن جميلة، هل كانت صديقته وجارته منذ زمن قديم.

قلت لها: نعم يا سمية ولكن هذا الحوار الذي دار بينهم مستحيل وفرصته شبه معدومة.

قالت في حيرة ظهرت على عينيها: لماذا يا سليم؟

قلت: إنها جارتهم المصابة بالتوحد منذ سنوات ولم تنطق كلمة في حياتها يا سمية، نعم كانت تقف بجوار الشباك دائما وأحيانا تدمع ولكنها في عالم آخر ولا تستطيع أن تقوم معه بهذا الحوار الذي كتبه وحيد.

صاح سعيد: يا الله، عادت الحيرة من جديد، هذا الرجل لم أر مثل حكايته في حياتي.

قلت له في تأكيد: كل من عرف قصته قال هذا بالفعل، قصته مزيج بين واقع مرفوض وخيال عجيب.

قالت سمية وهي متوترة: ولكنك لم تسألني يا سليم السؤال المهم.

قلت: وما هو يا سمية؟

قالت: إن كنت أنا من اتصل به بالفعل وهو في تايلند، هذا الرقم الغريب الذي رفض الرد عليه.

صحت مندهشا: أنتِ؟؟؟؟ كيف؟

قالت وهي تروي قصتها: لا أعلم وكأن الحسد أصابنا أنا وزوجي فجأة رغم عشرة السنين، بدأت أحس بالبعد عنه والرغبة الملحة في

العودة لوحيد ولو استلزم الأمر طلب الطلاق، أنت تعلم أن تلك الزيجة لم تكن بإرادتي ولكني تعايشت مع الزواج بغير حب واستسلمت للواقع ولكن جاءت فترة كنت أشعر بالبعد عن زوجي ورفضه وكرهه أحيانا، استطعت الحصول على رقم وحيد الجديد من شركته وعرفت أن معه خاصية التجوال وأنه يباشر أعماله من الخارج واتصلت به بالفعل، كنت أريد أن أعرف أحواله بعد سنوات وهل ما زال يتذكرني ويحبني أم لا؟

قلت: هل تعنين أن المانترا التي تحدث عنها ربما تكون حقيقية وربما كانت لها تأثير عليك بالفعل وكنتِ ستعودين له؟

قالت: من المحتمل يا سليم، كان زواجي مستقرا وما حدث بيني وبين زوجي فجأة ليس له تفسير، كنت أريد الخروج من عالمه والعودة لوحيد بأي ثمن.

قلت: ولهذا قال لي البواب أن سيدة تلبس نظارة سوداء جاءت وسألت عن وحيد أكثر من مرة.

قالت: نعم، سألت عنه أكثر من مرة في منزله قبل أن أسأل على رقم هاتفه، كنت أنوي زيارته في المنزل ومصارحته بكل شيء وأني ما زلت أحبه، شعور كنت أحاول أن أتناساه ولكن لا أعلم لماذا أتاني بقوة مزلزلة فجأة وبدون سبب.

قال سعيد: إنها المانترا إذن، ربما لها تأثيرا سحريا بالفعل ونحن نجهله أو من الممكن أن يكون رجل الخريف.

صحت وأنا أحذره: لا تنطق اسمه يا سعيد أرجوك، أنها مجرد شطحات خيال من وحيد ليلقي اللوم عليه في أمور حياته، رجل الخريف ليس له وجود هل سمعت؟

قال: حسنا يا عمي ولكن لماذا تعصبت أنا فقط أفكر معكم بصوت عال.

قلت: اعذرني يا سعيد ولكن سيرة هذا الشيء المسمي رجل الخريف تعصبني فعلا.

"الفزع"

خرجنا من عند القبر ورحلت سمية ورحل سعيد وبقيت قليلا حول قبر وحيد أفكر في صديقي واللعنات التي أصابته في حياته، كان البسمة لنا وطاقة النور أيام الجامعة وكان مصدرا للتفاؤل قبل أن يعيش في فلسفة التشاؤم والبؤس بسبب كل ما مر به.

ما زلت لا أعرف حقيقة حواره الغريب مع جميلة ولا كيف عرف أمور مستقبلية بخصوص عامر البواب حتى اعتبره وليا صالحا.

ولكن حدثت واقعة منذ عامين أحاول أن أنكرها وأحاول ألا أذكرها لأحد حتى لو كانت سمية أو سعيد أو أيا من يعرف قصة وحيد.

كان ابني في المرحلة الإعدادية في رحلة مدرسية إلى الأقصر وأسوان، قال لي عن تفاصيل الرحلة ووافقت على الفور فأنا أعشق هذه الأماكن السياحية وطبيعتها الخلابة وكنت أحاول أن أسعده قدر الإمكان بعد وفاة لبنى زوجتي.

وبعد أن عاد من الرحلة قلت له: هل استمتعت برحلتك يا عزيزي.

ولكنه لم يرد، كان خائفا ولا أعرف لماذا، هل تشاجر مع أحد التلاميذ؟

قلت له: ما بك يا عمرو؟

كان ينظر إلى عيني وهو خائف تماما ويرتعد وسلمني ظرفا ما دون أن ينطق.

قلت له: ما هذا الظرف من الذي أعطاه لك؟

قال لي وهو يبكي: لا أعلم يا أبي ولكنه قال لي بصوت مخيف أرجو أن تهديه لوالدك وكان يعرف اسمك، أنه شخص مخيف يا والدي.

قلت له: هل أذاك يا عمر؟ قل لي من هو؟ وسأجعله يندم.

قال لي وهو يحتضنني: لا يا أبي لم يؤذيني ولكنه كان أشبه بالمجرم، من هذا يا أبي؟ وماذا يريد منك؟

قلت: حسنا يا عمرو دعني وحدي الآن مع هذا الظرف وسأعرف كل شيء بالتفصيل.

خرج عمرو من الغرفة وتركني مع هذا الظرف الغريب وكأنه منذ ألف عام، ظرف قديم في غاية الاصفرار يكاد يتمزق وحده من مجرد اللمس.

فتحت الظرف وجحظت عيناي من الرعب والفزع، لم أصدق حينها ما رأيته حتى أني أسقطت فنجان القهوة من يدي وأنا أتراجع للخلف ويكاد قلبي يقف تماما.

رأيت ورقة شجر ذابلة من أوراق الخريف مكتوب عليها "لو كان انتظر قليلا لعادت له سمية مثلما وعدته ولكنه تعجل وخاف، والخوف صديق الموت يا سليم".

وما زاد فزعي هو صورة شخصية لكتف شخص ما يظهر في تايلند، على كتف هذا الشخص نقش غريب مثل التاتو مرسوم عليه سيارة وعروسة بفستان فرح وعلامة ما لا أفهمها.

عندما بحثت عن العلامة على الإنترنت عرفت أنها علامة المانترا، إنها المراحل التي مر بها وحيد، حادث السيارة والعروسة المزيفة ساندي ومرحلة تايلند والمانترا، كل المراحل التي عجلت برحيل صديقي

تظهر على كتف هذا الشخص الذي لا يظهر وجهه ولا جسده في الصورة المكتوب عليها "جزيرة بوكيت".

عشت في حالة فزع لشهور، أترقب ما سيحدث لي ثم حاولت أن أنكر الأمر تماما، لم أقل شيئا عن رجل الخريف لسمية أو سعيد ابن أخي ونحن بجوار القبر نزور وحيد، قلت لهم أنه مجرد خيال ولكن كلما سمعت اسمه ارتعدت مفاصلي ومازلت أخفي هذه الصورة وورقة الخريف وما زال ابني يذكر هذه الرحلة بكل خوف، الآن علمت لماذا كان يبكي بفزع، لقد حدثه بنفسه وأعطاه الظرف ليسلمه لي، ابني قابل رجل الخريف، كم أشفق على ما عاناه وحيد، والآن علمت أن كل ما مر به لم يكن ذنبه وكل العلاقات التي مر بها بعد سمية كانت سيناريو مرسوم، كان يتم التحكم بعواطفه وقلبه ولكنه مخلص لسمية، ما زلت في نظري العاشق المثالي يا وحيد الذي مرت عليه السنوات والحب لم يفارقه حتى وإن حاول رجل الخريف هزيمتك باسم تحقيق الأمنيات، كم أنت رائع يا صديقي الجميل.

"الطريق الثاني"

نهاية وحيد الثانية

"أليس في بلاد العجائب"

بعد أن أنهيت قراءة مذكرات وحيد التي وجدت معه في "المصحة" بعد انتحاره بشفرة حلاقة قام بقطع رقبته بها، قالت سمية في تعجب: إنه يكتب تفاصيل دقيقة جدا وكأنه عايش تلك الأحداث رغم أننا جميعا نعرف أنه لم يغادر المصحة لسنوات بعد حادث عائلته.

قلت لها: نعم يا سمية كان الدفتر هو حياته الموازية، صنع أحداثا وشخصيات غريبة وعاش فيها وكأنها حقيقة.

قال سعيد: إذن لم تكن هذه الأحداث حقيقية، بالطبع لم ير رجل الخريف ولا ساندي ولا أيا من هذه الشخصيات.

قلت له في تردد: ليس كلها يا سعيد

انتفضت سمية في غيرة وقالت: ماذا تقصد يا سليم؟؟ هل تعرف شيئا ما وتخبأه عني؟؟ هل عاش وحيد أيا من هذه التجارب؟؟ هل كان يحب "بي" التي حكى عنها؟

قلت في هدوء: لا يا سمية، أنا لا أعرف طبيعة علاقته بها ولكنه كان يقول لي سابقا أنها مجرد صديقة قابلها في تايلند

قال سعيد في دهشة: إذن كانت رحلة تايلند حقيقية؟؟ ولكن كيف وهو لم يغادر المصحة حتى مات؟

قلت له: بعض الأحداث حقيقية يا سعيد ولكن ترتيبها الزمني هو الخيالي، وحيد لم يغادر المصحة ولكنه سافر تايلند قبل وفاة عائلته وهو في كامل صحته.

قال سعيد: إذن فهي صور مشوشة من أحداث خيالية ممزوجة بالواقع.

قلت له مؤكدا: بالضبط هذا ما حدث وهذا ملخص دفتر وحيد، خيال ممزوج بواقع.

ثم أكملت لهم قصة وحيد وقلت: مدير المصحة النفسية صديقي وهو سبب اختياري لهذا المكان منذ البداية، هناك سرية بالطبع للمرضى سواء في الحوارات الدائرة بينهم أو تسجيلات الفيديو ولكن أنتم تعرفون أن العلاقات الشخصية تتغلب على القوانين أحيانا، فجلست مع صديقي "حسام" مدير المكان ورأيت أحد التسجيلات المصورة وهو ما أدهشني بالفعل.

"تسجيل فيديو / وحيد/ حالة رقم 174

كان وحيد يجلس أمام الطبيب يسأله: هل رأيت رجل الخريف اليوم يا وحيد؟ هل طلب منك أي شيء؟

قال وحيد: نعم أراه في كل يوم وكل لحظة أنه ينام تحت فراشي أحيانا ويحاول أن يسرق مني المذكرات.

. لماذا يحاول سرقة ما تكتبه يا وحيد؟

. لأنه يخاف أن أكشف أمره؟ يخاف أن يرى الصور وأن تسقط الأقنعة وأن تظهر الحقيقة.

. أي أقنعة وصور؟ وأي حقيقة تقصد؟

. إنه مخادع أفاق يريد أن يعيش في قصة ليست قصته، رجل الخريف مجرم أحاول أن أبعده عني وعن حياتي ولكن سيكشف الأمر ذات يوم، كل شيء سيتم كشفه للعالم.

. هل أنت خائف من رجل الخريف؟ هل هو موجود بيننا الآن في هذه الجلسة؟

. نعم، أنا فقط من يراه، هو دائما معي، أنه شيطان، شيطان دنس.

. هل سافرت لطلب تحقيق أمنياتك يا وحيد؟

. نعم سافرت

. إلي أين؟؟ أين تقع روما يا وحيد وكيف ذهبت إليها؟

. روما تقع في الطابق السفلي في الحديقة عند النافورة التي أحاول أن أحقق فيها أمنياتي

. روما في الحديقة؟؟ آآه.. إذا والشجرة في تركيا؟؟ والبحيرة التي ذهبت إليها؟

. كلها أماكن قريبة أسافر إليها بالطائرة

. هي قريبة في الطابق السفلي لماذا تأخذ الطائرة إذا يا وحيد؟

. أحاول أن أختصر المسافات هل أنت غبي؟

كان هذا أحد التسجيلات التي رأيتها لوحيد في المصحة، لقد تخيل وصنع عالما خاصا كاملا به، ورغم أنه كان يحب السفر وسافر بالفعل إلى عدة بلاد آسيوية ولكن كل ما ذكره في الدفتر كان ملفقا.

قالت سمية: ولكن كيف استطاع تجميع كل هذه المعلومات في الدفتر؟

قلت لها: المصحة للآسف ليست كما توقعت، هناك خلل كامل في المنظومة، كان يستطيع بالفعل الحصول على وجبات ليلية خارج نظام المكان عن طريق الممرضين وكان يحصل على تليفون ويتصفح الإنترنت وهو ما كان ممنوعا منعا باتا، فكل وسائل الاتصال للمرضى ممنوعة

ولكن بالتحقيق بعد انتحار وحيد عرفوا الممرض المسئول وأن وحيد وعده بأموال طائلة عند خروجه وفحصوا سجل هاتفه ووجدوا ما بحث عنه وحيد سواء فيديوهات للمانترا أو تفاصيل عن أماكن الأمنيات وغيره مما ذكره من معلومات حقيقية.

قال سعيد: ولكن قصة رجل الخريف هذه محيرة جدا؟ ماذا قال الأطباء عنها؟

قلت لهما: بالنسبة لقصة رجل الخريف فلقد جلست لمتابعة الحالة في زياراتي السابقة لوحيد وكان هناك اختلاف في الرأي بين الفريق الطبي على قصة رجل الخريف التي اختلقها وحيد.

قالت سمية باهتمام ملحوظ: ما هي الآراء تحديدا؟

قلت: كنت أجلس مع فريق الأطباء لمتابعة حالته ومعرفة إن كان هناك أمل في التحسن، حتى قال لي أحدهم ليشرح لي ما يعانيه وحيد: بعد الحادث الأليم الذي مر به وحيد مر بمرحلة تسمى اضطراب ما بعد الصدمة ودخل في مرحلة من الهلاوس التي تعافى منها تدريجيا ولكن بقيت بعضها لا ينكره ومصر على وجوده وكأنه واقع وخصوصا رجل الخريف وأظن أنه خلق تلك الشخصية لتكون مسئولة عن كل ألم يعانيه في حياته.

وقال الطبيب الآخر: ولكني مازلت عند رأي أحيانا أشعر بأنه يقصد نفسه، وحيد نفسه هو رجل الخريف، بالطبع لا أقصد الشيطان ولكن وكأنه يتهم نفسه اتهاما مباشرا بفعل شيء ما ولا نعرفه.

قلت للطبيب: وحيد، رجل الخريف؟؟ صدقني يا دكتور أنت لا تعرفه جيدا في الماضي، وحيد صاحب أجمل قصة حب وأطيب قلب في أصدقائي جميعا أنه نقي وطاهر من الداخل ولا يخفي علينا شيئا.

قالت سمية: هل ظن الطبيب أن وحيد يتحدث عن نفسه؟؟ أن وحيد يظن نفسه شيطانا أو شخصية شريرة؟؟

قلت: نعم، تخيلي يا سمية؟ إن وحيد بالطبع أبعد ما يكون عن ذلك.

قالت: ولكن بالفعل قصة رجل الخريف محيرة جدا، حتى الأطباء لهم تفسيراتهم المختلفة فيها.

لم يكن سر رجل الخريف مع الأطباء كانت مجرد تشخيصات ومحاولة للوصول إلى حقيقة شخصية هذا المخلوق الذي يدعي وحيد أنه شيطان ولكن السر الحقيقي كان معي أنا، أنا من عرفت من هو رجل الخريف وكتمت هذا السر خلال حواري مع سمية وسعيد.

حاولت أن أداري الحقيقة قدر المستطاع، صورة وحيد لا بد ألا تهتز بعد سنوات من وفاته، سأحافظ على سرك يا صديقي العزيز حتى لو كانت صدمتي فيك كبيرة بقدر صداقتنا ومعرفتي بك أو ظني أني أعرفك جيدا.

الكل يرتدي أقنعة، كل البشر ترتدي أقنعة ولكني كنت أرى فيك يا صديقي الوجه الحقيقي وكنت أظن أنك الوحيد الذي لا يرتدي قناعا في تلك الحفلة التنكرية المسماة بالحياة ولكني خدعت مثل الجميع.

لم أكن أتخيل أبدا أن تكون أنت صاحب الحفلة نفسها، وحيد الذي لم أكن أعرفه والذي لو عرفت حقيقته سمية الآن لسقطت على الأرض مغشيا عليها ولكن كتمان السر أفضل من تشويه لذكرى جميلة.

سأحافظ على صورتك يا وحيد مهما فعلت، سأحافظ على صورتك النقية في عيون الناس وأحاول أن أتناسى أنا نفسي ما رأيت ولم أصدقه في البداية.

كانت البداية عندما دخل وحيد إلى المستشفى بعد الحادث وفقدانه لعائلته، سلموا لي متعلقاته الشخصية فأنا الوحيد معه الآن، كان معي اللابتوب الخاص به المهشم تماما والهاتف الذي بقي يعمل ولكني أطفأته واحتفظت به معي حتى يخرج وحيد ولكنه انتحر داخل المصحة وبقي الهاتف معي للذكرى ولم أفتحه.

ولكن بعد ما سمعت تشخيص أحد الأطباء أن وحيد ربما يقصد نفسه برجل الخريف، توقفت عند هذه الجملة.

استوقفتني هذه الجملة من الطبيب وبدأت أفكر، هل هناك احتمال أن يصف وحيد نفسه بالشيطان؟؟ وحيد البريء الطيب يحاول أن يتبرأ من شيطانه الذي ذكره في مذكراته؟

هل هناك سر ما يا وحيد تخفيه علينا جميعا؟

حتى جاء اليوم وأخرجت هاتفه المغلق بكلمة سر وشحنته وأصررت أن أعرف الحقيقة، وما السر وراءك يا صديقي؟

كان الهاتف مغلقا بكلمة السر ولم اقترب منه لسنوات، احتفظ به فقط معي في دولابي ولم أقترب منه حتى بدأت ارتاب وأحاول الوصول إلى سر رجل الخريف.

ربما يدلني الهاتف على أي معلومة أصل بها لحقيقة ما ذكره وحيد وكتبه بالتفصيل، هل كل ما ذكره خيال؟ هل سأرى في هاتفه ما يدمر قصة الحب التي عاشت بيننا؟، قصة الحب الخالدة بين سمية ووحيد.

لم أستطع فتح الهاتف المغلق وذهبت إلى أحد محال الموبايلات ورفض أن يفتح الهاتف وعرفت أني أحتاج لأحد المحال التي تفعل أي شيء مقابل المال، فالمحل السابق كان صاحبه يملك ضميرا حي وأنا لا احتاجه في هذه المرحلة.

قام الرجل في المحل الآخر بفتح الهاتف ونقل محتوياته إلى "فلاشة" صغيرة وأعطاها لي وطلب مني المبلغ المتفق عليه وأعطيته وهرعت إلى منزلي أحاول الوصول إلى أي معلومة عن وحيد وحياته الخفية.

كان هناك عدة ملفات على الفلاشة للأسماء والرسائل والصور الشخصية، بدأت بالأسماء فوجدت اسم مكتوب بوصفه "ساندي/معادي".

تعجبت في البداية وظننت أنها حيلة ما ولكني فوجئت أن بينهما تاريخا من الرسائل الجنسية الخاصة جدا قرأتها ولم أصدق، كان كل هذا قبل الحادث وقبل وفاة أسرة وحيد أي أنه كان بالفعل في عالم آخر غير عالم سمية وذكراها وحبها ولم يكن الحادث هو السبب في اختراع تلك الشخصيات.

بدأت بمشاهدة الصور وسقطت دمعة من عيني، لم أتمالك نفسي حينما سقطت كل الأقنعة التي ارتداها وحيد، كان على حق حينما قال للطبيب النفسي أخاف أن تسقط الأقنعة.

لم أتخيل أن وحيد فعل كل هذا في سفره وفي داخل القاهرة أيضا وصور أخرى في إسكندرية وأماكن متعددة، حفلات جنسية ومخدرات وصور يعاقب عليها القانون حتى لأطفال أو قاصرات ترتدي أزياء فاضحة وفي فمها كرات ملفوفة وكرابيج معلقة على الجدران.

صور أخرى لبنات عرايا ترتدين أقنعة ووحيد على الأرض كأنه مغشيا عليه من آثار الثمالة والدخان في المكان.

كانت هذه الصور والسر الذي تم كشفه كفيلة أن أعرف الحقيقة، لقد كان وحيد يتحدث عن نفسه بعد الحادث، لقد رسم عالما في اللاوعي ورسم شخصية رجل الخريف بعد صدمة الحادث وكأنه يتبرأ من نفسه ومن خيانته لحب سمية، كانت قصة الحب التي ظننا أنها الأجمل والأطهر شبه منسية ومهجورة.

كان وحيد يعيش في قصة أخرى تماما، جنس وعربدة وحفلات ماجنة كاملة وكان يصورها كلها.

بدأت أشك في كل شيء، في كل شخص عرفته، في كل علاقة مررت بها، سأفلتر الأشخاص من عندي ولن أدخل أي شخص حياتي بسهولة، لأن الخداع أصبح السمة البشرية الأبرز والكل قد يكون بداخله رجل خريف يحركه ولا يعرف الجميع حوله أي شيء، نحن أبعد ما نكون عن الحقيقة، لكم كانت صدمتي بك كبيرة يا وحيد بقدر معرفتي بك، بالطبع حافظت على صورته أمام الجميع وأمام عائلتي وسمية وسعيد وكل الناس حتى أني كنت أحكي لحارس المقبرة عن

وحيد كل النقيض، كنت أظهره له كأنه ولي له كرامات ويرى أشخاصا غريبة لا يراها غيره.

جعلتك أمام الناس وليا وطاهرا يا وحيد وظهر وجهك الحقيقي الذي أخفيته حتى عن أعز أصدقائك.

عشت في قصة حب كل حياتك، عشت دور شهيد الهوى المعذب ولكن الحقيقة أنك كنت أبعد ما يكون عنها وكنت في حفلاتك شيطانا له باع في عالم الشيطنة والأقنعة رغم أني ظننت أنك الوحيد بغير قناع.

ولكني سأقولها لكم جميعا أخلعوا الأقنعة، لن أصدق المظاهر بعد الآن، أخلعوا أقنعتكم أيها السادة واكشفوا عن رجل الخريف.

نهاية وحيد الثالثة

"من دمائي إلى سن القلم"

أقدم لكم نفسي وأكشف عن شخصيتي، أنا الكاتب، أنا رجل الخريف، أليس كل كاتب هو رجل الخريف بالنسبة لعمله؟ أليس هو من يخلق الشخصيات ويضع لها العراقيل ويسحقها ويسجنها ويضعها في المصحة ويقتلها ويجعلها تعيش العشق والهوى ويمنحها الفرص أو يضيعها؟

لماذا تعجبتم؟ أنا رجل الخريف من نزلت بنفسي إلى عملي أخاطب شخصيتي، أخلق له فتاة في أحد الكافيهات أو أكون له شيطان أو أقتل عائلته وأمحو قصة حبه.

هل أنا سادي وحشي مجنون؟ لا ولكني أستمتع بما أفعله ربما أجلس أمامكم الآن وأعرض عليكم مشكلتي فشخصوا حالتي بنفسكم.

لا أستطيع أن أدع شخصيات العمل تصل إلى النهاية بغير موت أو رحيل، لست وحدي، الكثير من الكتاب يقتلون شخصياتهم ولسنا قتلة.

منحناهم الحياة على أوراقنا ونفس شهادة ميلادهم هي شهادة وفاتهم.

أبطالنا خلقناهم ليموتوا، خلقناهم لنستمتع بسلخهم بأقلامنا، وأحيانا بعض الطيبين نحن معشر الكتاب يمنحوهم نهايات سعيدة.

البعض مننا كريم يمنح شخصياته الحب حتى النهاية بل ويجعله يرتبط بفتاة أحلامه ولكن الكاتب لا يسير مع السائد ولا المألوف ولا يعطي للشخصية ما تتمناه.

لقد نزلت لوحيد بنفسي بين السطور ظهرت له في شفشاون الزرقاء، كل مدنه خيال وكل حوارنا خيال، يظن نفسه ينبض ويتنفس وله صديق يسمى سليم وله حبيبة تسمى سمية، هل صدقت نفسك يا وحيد؟؟ كل هذه الشخصيات من صنعي ومن خلقي، أنا خالقها ورجل خريفها في نفس الوقت.

الوحيد الذي يستطيع أني يكون إله وشيطان على الورق في وقت واحد هو الكاتب، نحن نرسم الشخصيات، حتى أدق ملامحها، نضع لهم تواريخ ميلاد وأماكن يعيشون بها وظروفا خلقناها ثم ترى الرواية تتعقد وتتمرد شخصياتنا علينا فنهبط لها أحيانا لكي تعود لحجمها.

من ظننت نفسك يا وحيد؟ أي أمنيات ستجوب العالم لتحقيقها عكس إرادتي؟ ثم إن هذا العالم الذي تجوبه أصلا من صنعي على الورق وليس عالما حقيقيا.. لقد قتلتك يا وحيد، ألقيت الرعب في قلبك أولا بشكلي الشيطاني ثم قتلتك في النهاية، دسست لك الرغبة في شراييتك لجعلك تنتحر، في كل النهايات ستنتحر في كل الأوراق ستنتحر، حتى لو في رواية لها ثلاث نهايات، لأني أنا الكاتب واخترت لك طريق الموت ولن تحيد عنه أيها المجنون.

الكاتب من يفعل المستحيل لكي يظهر عمله للنور، حتى في عصور كانت النساء فيها تكتب بأسماء رجال لكي تنشر رواياتها، الكثير من النساء كتبت بأسماء رجال مثل الكاتبة الفرنسية أمانتين أورو التي كتبت باسم "جورج ساند" وغيرها الكثيرات.

نكتب تحت القصف أحيانا مثل مورافيا أو نخوض المعارك السياسية مثل جورج أورويل ونخلق حتى مزرعة حيوانات بإسقاط سياسي.

نكتب السيرة الذاتية الماجنة أحيانا مثل روسو ونكتب السيرة المجنونة مثل بول أوستر.

نكتب عن المراهق والمقامر مثل ديستويفسكي ونكتب عن السمين والنحيف مثل تشيخوف، نكتب"التحفة" مثل زولا ونكتب كل شيء.

نحن قدرك يا وحيد إذا كنت شخصية ورقية، أنت مسير ولست مخيرا في عالمنا، تريد أن تعشق وتتزوج سمية دون إذني؟ أنت مختل.

نحن الكتاب نمد القلم بحبر من دمائنا، نجلس أحيانا سنوات أمام الشاشة نستجمع بعض الأفكار، نحاول أن نبحث ونستقصي وحينما ننهي العمل تكون الفرحة العارمة، فرحة خلق عالم جديد هي فرحة لا توصف، لحظة بيج بانج جديدة على الأوراق وسعادة غامرة حتى يموت هذا العالم وتحترق نجومه على حد تعبير أحمد خالد توفيق، وحين تحترق النجوم نحاول أن نخلق عالما جديدا في رواية جديدة.

ربما تعاتبونني لأنني سممت فكر وحيد وجعلته يرغب في الانتحار ولكني اخترت هذه النهاية له، لقد تمرد على القلم وليس له نزيف إلا الحبر الآن.

شخصيات أساسية وشخصيات ثانوية وراو عليم وراو ذاتي وسرد وموت وبين كل هذا يريد أن يتمرد ويتمنى ما لا أريده له، لقد أدخلني في متاهة وانقطاع عن الكتابة فترة، تحدث للكتاب أحيانا تشعر بأن البطل قد أدخلك في زاوية صعبة وتوقفت عن التفكير أو أصابك تعطش للتوقف، الانتقام سهل، هو بين أصابعي فسأقتله من حيث لا يدري.

أنا رجل الخريف إن اخترتم هذه النهاية، كل كاتب هو رجل الخريف لشخصياته يذهب بها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، يذهب بفكرها إلى حافة الجنون ويسمم عقائدها وحياتها وحريتها.

بين سطوري أعددت المشنقة لوحيد في شفشاون بين جدران زرقاء رسمتها بقلمي الأزرق.

رسمت له الحبيبة ورسمت له جدران المصحة، وفي النهاية رسمت له الموت كي أنهي معاناة.

أنا كاتب ولكني لست ساديا، أو اعتبروني ساديا فأنا أتلذذ بتعذيب شخصياتي ولا أرى لي وصفا غير هذا.. المهم أني سأبقى رجل الخريف.

"كل ما نسمعه ما هو إلا مجرد وجهة نظر وليست الحقيقة، وأي مما نراه ما هو إلا منظور وليس الواقع"

ماركوس أوريليوس

بعد أن قرأت النهاية التي اخترتها أو النهايات الثلاثة، هل عرفت الحقيقة؟

حقيقة وحيد أو حقيقتي أنا؟ كل نهاية ستؤدي بك إلى حقيقة مختلفة تدركها.

هل وحيد هو العاشق الرومانسي المثالي أم المجنون المدمر أو محض خيال؟

وسأقول لك أني قد أكون فعلا مثل النهايات الثلاثة "موجود حولك، أو في داخلك، أو على سن قلم" أنا مثل الثلاث نهايات ومثل الحقيقة لها عدة أوجه وعدة طرق.

لن تعرف حقيقة شخص حتى تعرف القصة الكاملة، لن تعرف حقيقة قصة في نصفها فقط، أبحثوا على من يضع لكم النهايات وختام الطرق ولا يترككم في نصف الطريق، الحقيقة في نصفها متعبة وهشة وفي أخرها قوية وصلبة.

مع تحياتي/

رجل الخريف

صدر للكاتب:

- أخر أحلام الدانتيل نصوص نثرية 2013
- الضفادع لا تشرب الماريجوانا ساخر 2014
- خمارة الشيخ مرسي قصص قصيرة 2015
- المسخ يعشق مريم رواية 2016
- بطريق سينجل لا يأكل السوشي ساخر 2017
- موسم الهجرة إلى الياسمين قصص قصيرة 2019